الإماميّة الاثنا عشرية

نظرة في

النشأة والتراث الفكري

عبدالكريم آل نجف

المقدمة

اسم الكتاب: الإمامية الاثنا عشرية نظرة في النشأة والتراث الفكري
المؤلف: عبدالكريم آل نجف
الموضوع: كلام
الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)
الطبعة: الأولى ١٤٢٦ هـ
المطبعة: اعتماد
الكمية: ٥٠٠٠
تاريخ النشر: ١٤٢٥ هـ

ISBN: 964-529-026-0
حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)
www.ahl-ul-bayt.org

كلمة المجمع

كلمة المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)

إنّ تراث أهل البيت(عليهم السلام) الذي اختزنته مدرستهم وحفظه من الضياع أتباعهم يعبّر عن مدرسة جامعة لشتى فروع المعرفة الإسلامية. وقد استطاعت هذه المدرسة أن تربّي النفوس المستعدة للاغتراف من هذا المعين، وتقدّم للأمة الإسلامية كبار العلماء المحتذين لخُطى أهل البيت(عليهم السلام)الرسالية، مستوعبين إثارات وأسئلة شتى المذاهب والاتجاهات الفكرية من داخل الحاضرة الإسلامية وخارجها، مقدّمين لها أمتن الأجوبة والحلول على مدى القرون المتتالية.

وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام) ـ منطلقاً من مسؤولياته التي أخذها على عاتقه ـ للدفاع عن حريم الرسالة وحقائقها التي ضبّب عليها أرباب الفرق والمذاهب وأصحاب الاتجاهات المناوئة للإسلام، مقتفياً خطى أهل البيت(عليهم السلام)وأتباع مدرستهم الرشيدة التي حرصت في الرد على التحديات المستمرة، وحاولت أن تبقى على الدوام في خطّ المواجهة وبالمستوى المطلوب في كلّ عصر.

إنّ التجارب التي تختزنها كتب علماء مدرسة أهل البيت(عليهم السلام)في هذا المضمار فريدة في نوعها ; لأنها ذات رصيد علمي يحتكم الى العقل والبرهان ويتجنّب الهوى والتعصب المذموم، ويخاطب العلماء والمفكرين من ذوي الاختصاص خطاباً يستسيغه العقل وتتقبله الفطرة السليمة.

وقد حاول المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)أن يقدم لطلاّب الحقيقة مرحلة جديدة من هذه التجارب الغنيّة من خلال مجموعة من البحوث والمؤلفات التي يقوم بتصنيفها مؤلفون معاصرون من المنتمين لمدرسة أهل البيت(عليهم السلام) ، أو من الذين أنعم الله عليهم بالإلتحاق بهذه المدرسة الشريفة، فضلاً عن قيام المجمع بنشر وتحقيق ما يتوخى فيه الفائدة من مؤلفات علماء الشيعة الأعلام من القدامى أيضاً لتكون هذه المؤلفات منهلاً عذباً للنفوس الطالبة للحق، لتنفتح على الحقائق التي

تقدّمها مدرسة أهل البيت الرسالية للعالم أجمع، في عصر تتكامل فيه العقول وتتواصل النفوس والأرواح بشكل سريع وفريد.

ونتقدم بالشكر الجزيل لسماحة الشيخ عبدالكريم آل نجف لتأليفه هذا الكتاب ولكل الأخوة الذين ساهموا في اخراجه.

وكلّنا أمل ورجاء بأن نكون قد قدّمنا ما استطعنا من جهد أداءً لبعض ما علينا تجاه رسالة ربّنا العظيم الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيداً.

المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)

المعاونية الثقافية

نشأة الإماميّة الاثنا عشرية

استأثر التشيّع بأهتمام واسع النطاق من قبل المؤرخين والمتكلمين والكتّاب قديماً وحديثاً، لما كان له من الأثر البعيد في حقول الفكر والسياسة والاجتماع من تأريخ المسلمين، بحيث أصبحت آفاق البحث فيه ومجالات الحديث عنه - بحد ذاتها - ظاهرة كبيرة تلفت أنظار الباحثين وتحفّزهم نحو مزيد من الاهتمام العلمي به.

والأمر الذي يثير الاهتمام بادئ ذي بدء هو الوصول الى تعريف وتحديد دقيق لمعنى التشيع أوّلاً، ليتم الوصول من خلاله الى تحديد لمعنى الإمامية.

مفهوم التشيّع

ففي كتاب المقالات والفِرق لسعد بن عبدالله الأشعري القمي المتوفّى سنة (٣٠١ هـ) نقرأ ان: «الشيعة وهي فرقة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه المسمون شيعة علي في زمان النبي(صلى الله عليه وآله)وبعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته... وغيرهم ممن وافق مودته مودة علي بن أبي طالب».

ثم ينص على أن هؤلاء انقسموا بعد وفاة الرسول(صلى الله عليه وآله) الى ثلاث فرق، وصف الأولى منها بالاعتقاد بكون الإمام علي(عليه السلام)مفروض الطاعة من قبل الله والرسول(صلى الله عليه وآله)وان النبي نصّ عليه وانه معصوم وان الإمامة جارية في ذريته. ووصف الثانية بالاعتقاد بأفضلية علي(عليه السلام) على من سواه لكنها صححت خلافة المتقدمين عليه وهم أوائل البترية، ووصف الثالثة بنفس وصفه للأولى سوى الاعتقاد بأن الإمامة بعد الحسن والحسين(عليهما السلام) تكون شورى في ذرّيته ومعنى ذلك انعدام العصمة والنصّ. بعدهما. خلافاً لما كانت عليه الفرقة الأولى وهؤلاء هم الجارودية من الزيدية[١].

(١) المقالات والفِرق، الأشعري: ص ١٥ - ١٨ تصحيح وتعليق د. محمّدجواد مشكور، طهران، الطبعة الثانية.

وفي كتاب فرق الشيعة للحسن بن موسى النوبختي المتوفّى سنة (حدود ٣١٠ هـ) نطالع هذا التعريف والتصنيف بعينه[٢]. وهو مايفهم منه ان التشيع أعم من القول بالنصّ والعصمة وعدمه، وان الجامع لمعانيه هو الولاء والمودة لعلي(عليه السلام)والاعتقاد بأولويته على من سواه. وسنجد أن الخصائص المذكورة للفرقة الأولى تتطابق اجمالاً مع ماعليه الإمامية ونقطة القوّة في هذا التعريف انه صادر عن اثنين من أعلام الشيعة المتقدمين المعاصرين أو القريبين من حدوث كثير من الانشقاقات والفِرق.

وفي تراث الشيخ المفيد المتوفّى سنة (٤١٣ هـ) نطالع ان الشيعة هم «اتباع أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - على سبيل الولاء والاعتقاد لإمامته بعد الرسول - صلوات الله عليه وآله - بلا فصل وفي الإمامة عمّن تقدمه في مقام الخلافة وجعله في الاعتقاد متبوعاً لهم غير تابع لأحد منهم على وجه الاقتداء»[٣] «وإذا ثبت مابيّناه بالسمة بالتشيع كما وصفناه وجبت للإمامية والزيدية الجارودية من بين سائر فرق الأمة لانتظامهم بمعناها»[٤] وانه «يستحق اسم التشيع ويغلب عليه من دان بإمامة أمير المؤمنين عليّ(عليه السلام) على حسب ماقدمناه، وإن ضمّ الى ذلك من الاعتقاد ما ينكره كثير من الشيعة ويأباه... وكان هشام بن الحكم شيعياً وان خالف الشيعة كافة في اسماء الله تعالى وماذهب إليه في معاني الصفات»[٥].

ونصّ الشهيد الثاني المتوفّى سنة (٩٦٦ هـ) على ان «الشيعة من شايع علياً أي اتبعه وقدمه على غيره في الإمامة وان لم يوافق على باقي الأئمة فيدخل فيهم الإمامية، والجارودية من الزيدية والإسماعيلية غير الملاحدة منهم، والواقفية والفطحية»[٦].

ويلاحظ من هذا السياق ان مفهوم التشيع عند الأشعري والنوبختي يتقوم بالولاء لعلي(عليه السلام) ، وان الشيخ المفيد قد ادخل تطويراً على هذا المفهوم بإدخاله عنصر النص على الإمامة. وسنقرأ بعد قليل مايدل على ادخاله تطويراً آخر.

(٢) فِرق الشيعة، النوبختي: ص ١٧ - ٢١ ط النجف.

(٣) أوائل المقالات، المفيد: ص ٣٥. طبعة مؤتمر ألفية الشيخ المفيد. قم.

(٤) المصدر السابق: ص ٣٧.

(٥) أوائل المقالات، المفيد: ص ٣٨. طبعة مؤتمر ألفية الشيخ المفيد. قم.

(٦) الروضة البهية، الشهيد الثاني: ج٣ ص١٨٢، ط النجف.

مفهوم الإمامية

وبعد اتضاح مفهوم التشيع نتحول الى بيان مفهوم الإمامية. ففي كتاب المقالات والفرق للأشعري نقرأ: ان أصحاب الإمام الحسن العسكري(عليه السلام)افترقوا من بعده الى خمس عشرة فرقة، وعدّ الأولى منها الفرقة الإمامية التي قالت «لله في أرضه بعد مضي الحسن بن علي حجة على عباده وخليفة في بلاده قائم بأمره من ولد الحسن بن علي بن محمّد بن علي الرضا آمر ناه مبلّغ عن آباءه مؤدٍّ عن أسلافه... الخ»[٧]، وفي كتاب فرق الشيعة للنوبختي نقرأ نفس هذا المضمون والإشارة الى ماحصل بعد استشهاد الإمام الحسن العسكري(عليه السلام) ، سوى انه ذكر أن الشيعة افترقوا حينذاك الى أربع عشرة فرقة وعدّ الفرقة الإمامية الفرقة الثانية عشرة منها، وذكر في وصفها نفس ماقاله الأشعري سعد بن عبدالله[٨]. وفي الفصول التي اختارها الشريف المرتضى المتوفّى سنة (٤٣٦ هـ) من كتاب العيون والمحاسن لأستاذه الشيخ المفيد ذكر الشيخ المفيد: ان الشيعة افترقت بعد وفاة الحسن العسكري الى أربع عشرة ثم وصف كلّ واحدة منها، وفي الأخير عاد الى الفرقة الأولى وسماها بالفرقة الإمامية الاثني عشرية، فقال: «وليس من هؤلاء الفرق التي ذكرناها فرقة موجودة في زماننا هذا ـ وهو من سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة ـ إلاّ الإمامية الاثنا عشرية القائلة بإمامة ابن الحسن المسمّى باسم رسول الله(صلى الله عليه وآله) القاطعة على حياته وبقائه الى وقت قيامه بالسيف حسبما شرحناه فيما تقدم عنهم، وهم أكثر فرق الشيعة عدداً وعلماء ومتكلمين ونظاراً وصالحين وعبّاداً ومتفقهة وأصحاب حديث وأدباء وشعراء، وهم وجه الإمامية ورؤساء جماعتهم والمعتمد عليهم في الديانة»[٩].

وفي موضع آخر عرّف الإمامية بأنهم، «القائلون بوجوب الإمامة والعصمة ووجوب النص» ثم استطرد قائلاً: «وإنّما حصل لها هذا الاسم في الأصل لجمعها في المقالة هذه الأصول، فكل من جمعها فهو إمامي وان ضمّ إليها حقاً في المذهب كان أم باطلاً، ثم ان من شمله هذا الاسم واستحقه لمعناه قد افترقت كلمتهم في أعيان

(٧) المقالات والفِرق، الأشعري: ص ١٠٢.

(٨) فِرق الشيعة، النوبختي: ص ١٠٨.

(٩) الفصول المختارة، علي بن الحسين المرتضى: ص ٣٢١. طبعة مؤتمر الفية الشيخ المفيد قم.

الأئمة(عليهم السلام) ، وفي فرق الإمامية الكيسانية وهم أصحاب المختار»[١٠] فجعل الكيسانية من فرق الإمامية. وفي موضع آخر كتب قائلاً: «ثم لم تزل الإمامية على القول بنظام الإمامة حتى افترقت كلمتها بعد وفاة أبي عبدالله جعفر بن محمّد(عليه السلام)»[١١].

ونلاحظ هنا نفس ما لاحظناه في مفهوم التشيّع، وهو ان مفهوم الإمامية بالصورة التي بيّنها الأشعري والنوبختي مفهوم بسيط يتقوّم بالإيمان بإمامة المهدي كإمام ثاني عشر، وبغيبته، وان الشيخ المفيد قد أجرى عليه تطويراً فكرياً حينما جعله متقوّماً بالاعتقاد بأركان ثلاثة هي، الإمامة والعصمة والنص، وحيث أن هذه الأركان الثلاثة لاتختص بالقائلين بإمامة الإمام الثاني عشر. لذا سمّى الفرقة الإمامية القائلة بإمامته بالإمامية الاثني عشرية، ووصفهم بأنهم وجه الإمامية ورؤساء جماعتهم والمعتمد عليهم في الديانة. بل إن ما أجراه من التطوير في مفهوم الإمامية يعود في الحقيقة الى تطوير جديد في مفهوم التشيع. وذلك انه نصّ على أن أوّل من شذ عن الحقّ من فرق الإمامية الكيسانية. ومعنى ذلك ان مفهوم الإمامية لديه مفهوم يستوعب التشيع ويترادف معه الى حدّ بعيد بحيث يتصل تأريخياً بفترة ماقبل ظهور الكيسانية، وهي فترة الاستقطاب العلوي المواجه للأستقطاب الأموي التي شهدت الظهور البارز لمفهوم التشيع.

بين المؤرّخ والمتكلّم

ويبدو للباحث أن الفرق بين الأشعري والنوبختي من جهة، والشيخ المفيد من جهة ثانية في التعامل مع مفهومي التشيع والإمامية هو الفرق بين مؤرخ ينظر الى الحدث التأريخي من جهة تحقق الوقوع وعدمه وبين متكلم ينظر إليه من زاوية التفسير الكلامي والاعتقادي. ومن هنا جاء انحصار الأولين بحدود الواقعة التأريخية التي أفرزت ظهور عنواني التشيع والإمامية لأول مرة في التأريخ. ومن هنا أيضاً جاءت سعة نظر الشيخ المفيد وحيوية ذينك المفهومين لديه.

وقد يلاحظ على رأي الشيخ المفيد بانعدام الدليل التأريخي عليه، إذ لايوجد مؤشر تأريخي يدل على وجود فرقة كانت تحمل اسم الإمامية قبل استشهاد الإمام الحسن

(١٠) المصدر السابق: ص٣٠٠.

(١١) المصدر السابق: ص ٣٠٥.

العسكري(عليه السلام) سنة (٢٦٠هـ)، فمنذ نشأة التشيع وحتى ذلك التأريخ لم يعهد هذا الاسم بين الأسماء العديدة التي ظهرت في تأريخ التشيع. ومن هنا يصرّ الدكتور عبدالله فياض على ان الظهور الأوّل لهذا الاسم هو ما ذكره النوبختي والأشعري من انقسام الشيعة بعد الحسن العسكري الى عدة فرق كانت الإمامية أحداها. ويؤكد انه تتبع نشوء الفرق الشيعية حتى نهاية الربع الأوّل من القرن الثاني فلم يجد بينها فرقة تحمل هذا الاسم. ولذا جعل اسم كتابه «تأريخ الإمامية واسلافهم من الشيعة» أي أن الإمامية ليس لهم سلف يحمل هذا الاسم قبل استشهاد الإمام الحسن العسكري. وإنّما سلفهم هم الشيعة، ويخلص في نهاية الأمر الى القول بأن «مصطلح الإمامية لم يصبح علماً لفرقة من فرق الشيعة إلاّ بعد حصول غيبة الإمام الثاني عشر من الأئمة المعصومين وان تلك الغيبة تعد الأساس الذي بنيت عليه فرقة الإمامية»[١٢].

وقد يؤيّد هذا الرأي بما نقله النجاشي المتوفّى سنة (٤٥٠ هـ) في مقدمة رجاله من انه وقف «على ما ذكره السيّد الشريف اطال الله بقاءه وأدام توفيقه من تعيير قوم من مخالفينا انه لاسلف لكم ولا مصنف...الخ»[١٣]. وهذا يدل دلالة واضحة على ان الإمامية كانت آنذاك فرقة حديثة النشوء، وذلك بعد تفسير الضمير «نا» في قوله: «مخالفينا» بالامامية، لأنّا نعلم ان النجاشي يتحدث في رجاله وفهرسته عن الإمامية، وكثيراً مايستخدم عبارة «أصحابنا الإمامية».

رأي غريب

وتجدر الإشارة هنا الى رأي غريب أورده الدكتور كامل الشيبي في كتابه (الصلة بين التصوف والتشيع) وهو انه اعتبر «الإمامية أنصار موسى بن جعفر وهم أسلاف الاثنا عشرية الحاضرة»[١٤] وارسل رأيه هذا ارسال المسلّمات التي لاتحتاج الى دليل أو برهان، وغرابة هذا الرأي وعدم وجود قائل به يغنينا عن التعرض له. وهو يصدق على الواقفية الذين وقفوا على الإمام الكاظم(عليه السلام) ولم يؤمنوا بالأئمة الذين جاءوا بعده، فيبقى البحث دائراً بين رأي النوبختي والأشعري والدكتور فياض وبين

(١٢) تاريخ الإمامية واسلافهم، الدكتور عبدالله فياض، ص ٢٧، ٥٨، ٧٣، ٧٨، ٧٩، ٨٥.

(١٣) رجال النجاشي، أحمد بن علي النجاشي: ص ٣. طبعة جامعة مدرسين قم.

(١٤) الصلة بين التصوف والتشيع، الدكتور كامل الشيبي: ص ٢١٤.

رأي الشيخ المفيد الذي اصبح أساساً لمن بعده كالشهرستاني الذي نصّ على أن «الإمامية هم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي نصاً ظاهراً وتعييناً صادقاً من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين»[١٥].

وقد بيّنا قبل قليل أن المسألة بحد ذاتها ليست باعثة على الاختلاف، وإنّما الباعث الأساس عليه هو الاختلاف في زاوية النظر. فمن نظر إليها من زاوية تأريخية محضة وصل الى ماقاله الأشعري والنوبختي، ومن نظر إليها من منظار كلامي اعتقادي انتهى الى رأي الشيخ المفيد والشهرستاني، والمنظار الأوّل قاصر بحد ذاته لأنه ينظر الى الواقعة التأريخية معزولة عن ملابساتها وجذورها الفكرية والاجتماعية المحيطة بها. والمنظار الثاني اشمل وأصدق في نتائجه. ولذا فالصحيح في الأمر هو ماعليه الشيخ المفيد من جعل عنوان الإمامية عنواناً ممتداً مع التشيع من الناحية التأريخية، ومتقوماً بالاعتقاد بوجوب الإمامة، وكونها في علي وأولاده، وانها مشروطة بالعصمة والنص، فكل من شايع علياً ولم يعتقد بهذه الأركان فهو شيعي، لكنه غير امامي وكلّ من شايع علياً واعتقد بهذه الأركان الثلاثة فهو شيعي إمامي، وأما مسألة تأخر الظهور التأريخي لمصطلح الإمامية الى حين الغيبة وانعدامه قبلها فإنها لاتخل بمقالة الشيخ المفيد، لأن الشيء يتقوم بمضمونه لا باسمه. والمهم ان الأركان المذكورة آنفاً للمذهب الإمامي كانت ماثلة في الخط الشيعي منذ بدايته وانها تقوم على أسس متينة من الكتاب والسنّة ومستقاة من زخم حديثي واسع وأكيد وان نصوص الأئمة المتقدمين تتظافر في تأييدها مع نصوص الأئمة المتأخرين على حدٍّ سواء.

نعم لو كانت اركان المذهب الإمامي مستمدّة من نصوص الأئمة المتأخرين فقط كالعسكريين(عليهما السلام) مثلاً لأمكن ان يكون لرأي الدكتور فياض وجه، لكنها ليست كذلك. وهذا يعني ان منبع الإمامية هو نفس منبع التشيع وهو نفس منبع الإسلام، ولذا كان الانشقاق الذي يطرأ يأخذ عنواناً جديداً ويعرف باسم جديد كالكيسانية والزيدية، ويبقى الأصل ثابتاً على ماهو عليه غنياً عن الحاجة الى تسمية جديدة. ويتم تمييز الأصل عن الانشقاق في الواقع الشيعي من خلال الانتماء لسلسلة الأئمة الاثني عشر(عليهم السلام)، فالفطحية وان كانوا شيعة بمعنى الولاء لعلي وأولاده(عليهم

(١٥) الملل والنحل، محمدعبدالكريم الشهرستاني: ج١ ص ١٤٤، ١٤٦.

السلام) إلاّ ان الممثل الحقيقي للتشيع بعد الإمام الصادق(عليه السلام) لم يكن عبدالله الأفطح وإنّما كان الإمام الكاظم(عليه السلام) هو الممثل الذي تؤمن الشيعة بتمثيله لها وتحسب السلطات الزمنية حساباتها ازاءه، وهكذا الأمر في باقي الانشقاقات.

الإمامية روح التشيّع

ومن هنا يتضح ان ظهور الأسماء الجديدة ضمن الواقع الشيعي كان ناشئاً من حاجة الانشقاق الى تسمية تمييزه عن الأصل. وحيث لم تكن الإمامية انشقاقاً وإنّما هي الأصل الذي لابد له من التأكيد على هويته الأصلية بإثبات اسمه الطبيعي والابتعاد عن أي تسمية جديدة توهم بواقع جديد مختلف عن السابق. ومن هنا جاء اختفاء عنوان الإمامية الى حين الغيبة الصغرى التي اقترنت بتحولات وأحداث أساسية على الصعيد الشيعي كان من شأنها افراز هذا العنوان الذي إذا ما دققنا النظر فيه ادركنا السرّ في ظهوره. ذلك انه جاء تعبيراً عن كونه الممثل الحقيقي للتشيع دون سواه وتكريساً لهذا الأدّعاء فإن تسمية الإمامية جاءت بمثابة التذكير بأن التشيع يتقوّم بفكرة الإمامة وان الإمامة كلّ لا يتجزأ فلايمكن الإيمان ببعض الأئمة دون البعض الآخر، كما هو الشأن في النبوة، حيث لا يصحّ الاعتقاد بنبوة بعض الأنبياء وانكار نبوة الباقين، لأن التبعيض يؤدي الى إنكار الجميع، وكذلك الأمر في الإمامة. وحيث ان الإمام المهدي(عليه السلام)هو الإمام الثاني عشر والحلقة الأخيرة في سلسلة الإمامة لذا فإن الإيمان بأصل الإمامة لايتم إلاّ بالإيمان بالإمام المهدي(عليه السلام).

وإذا لاحظنا ظروف الغيبة وما قارنها من تشكيك بقضية الإمام المهدي(عليه السلام)من جهة، ولاحظنا حاجة التشيع آنذاك الى تكريس وتعميق خصوصياته العقائدية وهو يطوي عصر حضور الإمام(عليه السلام) ويستقبل عصر غيبته من جهة ثانية، ادركنا مدى الحاجة الى التأكيد على جوهر التشيع وأساسه المتين المتمثل بفكرة الإمامة الاثني عشرية. واتضح لدينا مغزى تسمية الخط الأصيل لنفسه بـ «الإمامية»، وكونها محاولة تستبطن البرهنة على استقامة هذا الخط وانحراف الخطوط والانشقاقات الطارئة الأخرى عن جوهر التشيع ومحوره الأساس. خاصة وان هذه التسمية أصبحت تردف بعنوان تأكيدي وتفصيلي آخر هو الاثنا عشرية.

وبتعبير آخر يمكن القول بأن تسمية الإمامية ظهرت كمحاولة لتبني الخط الشيعي الأصيل من منبعه النبوي الى مصبّه المهدوي، وتكريس أصالة هذا الخط وتصفية الخطوط الأخرى. وبالتالي فإن هذه التسمية الجديدة لاتدل على ظهور واقع جديد. وكلّ ما في الأمر انها تشير الى الواقع الأصيل القديم والطبيعي بتسمية أصيلة جديدة.

ومن كلّ ذلك يتبين لنا ان تأخر ظهور التسمية لايدل على ان الإمامية فرقة طارئة ظهرت أثر أحداث الغيبة الصغرى وان هذه الغيبة هي الأساس الذي تقوم عليه، كما رأى الدكتور عبدالله فياض، لأن الأسماء هي حاجة الجداول الصغيرة المتفرعة عن النهر الكبير، ولا معنى لأحداث تسمية جديدة للنهر كلما تظهر الجداول في وسطه، نعم عندما تتشعب نهايته الى شعب تبدو متساوية النسبة الى الأصل بحيث يصعب التمييز بين الأصل والفرع، هنا تظهر الحاجة الى تسمية وقرينة تميّز الأصل عن الفرع وتفرز الشعبة الممتدة عن الأصل من الشُعب المنحرفة عنه.

ومن هنا نجد الشيخ النجاشي يؤلف فهرسته ويدرج فيه اسماء المصنفين من أصحاب الأئمة(عليهم السلام) ويصف الكثير منهم بـ «أصحابنا الإمامية» كمحاولة علمية تأريخية لأثبات وجود مصنفين ومصنفات إمامية منذ صدر الإسلام وحتى أيام النجاشي وعصره في القرن الخامس الهجري، وكذلك الشيخ الطوسي وأمثاله من الرجاليين الإمامية.

ومن الجدير بالملاحظة ان الأئمة(عليهم السلام) لم يطلقوا على اتباعهم تسمية غير التسمية التي اطلقها النبي(صلى الله عليه وآله) على اتباع الإمام علي(عليه السلام)وهي تسمية الشيعة، وأن تسمية الإمامية اطلقها الخط الشيعي الأصيل على نفسه بعد غيبة الإمام(عليه السلام) ، ومن الطبيعي ان يطلقها على الحلقات السابقة واللاحقة منه على حد سواء. فنجد النجاشي - مثلاً - يصف علي بن عبيدالله بن الحسين بن علي بأنه اختلط بأصحابنا الإمامية[١٦]، ونجد الشيخ الطوسي يصف علي بن إسماعيل التمار المعاصر لهشام بن الحكم بأنه أوّل من تكلم على مذهب الإمامية[١٧]، لأنهما ينظران الى الخط الفكري الأصيل ويطلقان عليه التسمية الحادثة الجديدة بحكم أنّ الخط أسبق من التسمية.

(١٦) رجال النجاشي، أحمد بن علي النجاشي: ص ٢٥٦ طبعة جامعة مدرسي الحوزة العلمية بقم.

(١٧) الفهرست، محمد بن الحسن الطوسي: ٨٧ ط النجف.

وإذا كانت الإمامية الاثنا عشرية هي الفرقة الموجودة في زمن الشيخ المفيد ولايوجد سواها من الإمامية وانها أكثر فرق الشيعة عدداً وعلماءً ومتكلمين ومتفقهة - كما رأينا ذلك من الكلام السابق للشيخ المفيد - فهي اليوم تمثل الأكثرية الشيعية الساحقة ولايوجد الى جانبها سوى أقلية زيدية وأخرى إسماعيلية.

وقد حملت عدة دول وحكومات وامارات لواء هذا المذهب الحقّ، كدولة البويهيين في ايران والعراق بين عامي (٣٢١ - ٤٤٧ هـ) والدولة الحمدانية في سوريا والموصل وكركوك بين عامي (٢٩٣ - ٣٩٢ هـ) والدولة الصفوية في ايران مابين عامي (٩٠٥ - ١١٣٣ هـ).

ومن الناحية الجغرافية والبشرية والسياسية تمثل الجمهورية الإسلامية اليوم القاعدة للتشيع الاثنا عشري، فهي من ناحية عامة أوّل دولة اسلامية عصرية، ومن ناحية خاصة تمثل الدولة الإمامية الاثني عشرية الحقيقية الأولى فى تأريخ التشيع[١٨]. ويعيش من حولها شيعة اثنا عشرية متوزعين في مناطق عديدة من العالم الإسلامي كالعراق وافغانستان ولبنان والبحرين وبعض مناطق السعودية والكويت وتركيا وسوريا واليمن واندونيسيا والهند وآذربيجان والصين.

التأسيس النبوي للتشيّع

إنّ الملاحظة الدقيقة للمعطيات التأريخية تفيد أنّ النبي(صلى الله عليه وآله)كان المؤسس لحركة التشيّع في المدينة، بما يبيّن بالنتيجة حجم المغالطة الفاحشة التي وقع فيها عدد من الباحثين الذين ينسبون التشيّع تارة الى عبدالله بن سبأ وأخرى الى حادثة كربلاء وثالثة الى حادثة صفين.

وجهد النبي(صلى الله عليه وآله) في هذا لمضمار كان على ثلاث مراحل، أو بالدقّة ثلاثة خطوط:

١ ـ خط تعيين الإمام والخليفة للمسلمين بعد النبي(صلى الله عليه وآله) .

(١٨) لابدّ من التذكير هنا بأنّ الجمهورية الإسلامية قائمة على مبدأ الوحدة الإسلامية، وليس المقصود بالعنوان الشيعي فيها معنىً طائفياً تعصّبياً، وهي ترفض وبشدّة هذا المعنى داخل الجمهورية وخارجها، وترى الطائفية علامة استعمارية بغيضة، تتناقض مع أصل الإسلام، ومن يحمل هذه العلامة ليس من السنّة ولا من الشيعة بشيء، وعلى المسلمين داخل الجمهورية وخارجها الاتّحاد حول محور الإسلام والدفاع عن مقدساتهم المشتركة، ضد دسائس أعداءه، والحيلولة دون تحوّل اختلافاتهم الفكرية وتعدديتهم المذهبية الى وسيلة لتفجير الأمة من الداخل لصالح الصهيونية والاستعمار.

٢ ـ خط دعوة المسلمين الى موالاة أهل البيت(عليهم السلام) عامّة والإمام عليّ خاصة والإشارة الى فضائلهم ومنزلتهم، وتحذير المسلمين من الابتعاد والتخلف عنهم.

٣ ـ خط تسمية اتباعهم بالشيعة وبيان منزلتهم كطليعة للمجتمع الإسلامي والفرصة هنا لا تتسع لبيان المؤثرات التاريخية والقرآنية والحديثية الدالة على الخط الأوّل والثاني اللّذين يتطلب بيانهما عدّة كتب، ومن شاء فليراجع الكتب المختصة بذلك[١٩] .

وسنقتصر هنا على ذكر المؤشرات القرآنية والحديثية والتاريخية المرتبطة بالخط الثالث باعتبار أكثر وضوحاً في الدلالة على المقصود وهي:

١ ـ ورد في تفسير قوله تعالى: (**لا يستوي أصحاب النّار وأصحاب الجنّة أصحاب الجنّة هم الفائزون**)[٢٠] . أن النبي(صلى الله عليه وآله) قال مشيراً الى عليّ(عليه السلام): «**والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة**»[٢١] .

٢ ـ ورد في تفسير قوله تعالى: (**إنّ الّذين آمنوا وعَمِلوا الصّالحات أولئك هُم خير البرية**)[٢٢] ، أنّ الرسول(صلى الله عليه وآله) قال لعليّ(عليه السلام): «**يا عليّ هم أنت وشيعتك**»[٢٣] .

٣ ـ قال الرسول(صلى الله عليه وآله) لعليّ(عليه السلام): «**تأتي يوم القيامة أنت وشيعتك راضين مرضيّين ويأتي أعداؤك غضاباً مقمحين**»[٢٤] .

٤ ـ قال الرسول(صلى الله عليه وآله) لعليّ(عليه السلام) : «**أما ترضى أنّك معي في الجنّة والحسن والحسين وذريتنا خلف ظهورنا وأزواجنا خلف ذريتنا وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا**»[٢٥] .

(١٩) من شاء فليراجع كتاب (المراجعات) للعلامة شرف الدين، وكتاب (بحث حول الولاية) للسيد الشهيد الصدر، ولصاحب هذه السطور كتاب (المرجعية الشاملة لأهل البيت(عليهم السلام)) في هذا المضمار سيصدر قريباً إن شاء الله تعالى من المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام) .

(٢٠) الحشر: ٢٠.

(٢١) انظر مصادر هذا الحديث عند أهل السنّة في هوامش المراجعة ١١٠ من كتاب المراجعات ص٦٢٠ من الطبعة الجديدة المحققة الصادرة عن المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)ومجموع المصادر المذكورة ثمانية مصادر.

(٢٢) البيّنة: ٧.

(٢٣) انظر مصادر هذا الحديث في هوامش المراجعة ١١٠ من المصدر المذكور ص١١٩ ـ ١٢٠، وقد بلغت المصادر السنية له ١٥ مصدراً.

(٢٤) انظر مصادر هذا الحديث في هوامش المراجعة ١١٠ من المصدر المذكور ص٦٢٠ وقد بلغت المصادر السنية المذكورة فيه ٧ مصادر.

(٢٥) انظر مصادر هذا الحديث في المصدر المذكور ص٦٢٠ وهي ثلاثة مصادر سنية.

٥ ـ قال الرسول(صلى الله عليه وآله) : «**يا علي إنّ الله قد غفر لك ولذريتك وولدك ولشيعتك ولمحبّي شيعتك**»(٢٦) .

ومن مجموع كلمات الرسول(صلى الله عليه وآله) وأهل البيت(عليهم السلام) في مصطلح الشيعة يتّضح أن مرادهم من هذا العنوان الحركة الطليعية التي تعين الإمام عليّ(عليه السلام)وسائر أهل البيت على قيادة الأمة في الاتجاه الصحيح، ولما سارت الأمور بنحو مخالف للتخطيط النبوي ظهر الشيعة كحزب وفرقة معيّنة تذكر الى جانب سائر الفِرق والمذاهب، وهي صورة اضطرارية طارئة بفعل خروج المسيرة عن التخطيط النبوي لها، والصورة الأصيلة ما ذكرناه.

(٢٦) انظر مصادر هذا الحديث في المصدر المذكور ص٦٢١ وهي أربعة مصادر سنية.

ملاحظة: المصادر السنية المعتمدة في هذه النصوص الخمسة هي:

شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي. كفاية الطالب للكنجي الشافعي، المناقب للخوارزمي الحنفي، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، نظم درر السمطين للزرندي الحنفي، ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق لابن عساكر الشافعي، ينابع المودّة للقندوزي الحنفي، نور الأبصار للشبلنجي، الصواعق المحرقة لابن حجر، الدر المنثور للسيوطي، تفسير الطبري، تذكرة الخواص للسبط بن الجوزي، فتح القدير للشوكاني، روح المعاني للآلوسي، فرائد السمطين، كنوز الحقائق للمناوي الشافعي، كنز العمال للمتقي الهندي، مجمع الزوائد للهيثمي الشافعي، النهاية لابن الأثير.

وقد راجع صاحب هذه السطور أغلب هذه الهوامش وتأكّد بنفسه من مطابقتها مع المصادر المذكورة.

الإمامة كمعتقد أساس

اتّسم المذهب الإمامي بخصوصيات عقائدية كثيرة ميّزته عن باقي المذاهب الإسلامية، وقد ألّفت العديد من الكتب قديماً وحديثاً في مجال شرح هذه الخصوصيات والبرهنة عليها، حتى تكوّن من ذلك تراث ضخم يضاهي ما لجميع المذاهب الأُخرى من تراث في النوع والكم، ولايهمنا هنا ان نتحدث عن كلّ هذه الخصوصيات، لأن استقصاء ذلك استطراد مخل يخرج بنا عن صلب مانحن فيه، ومن شاء ذلك فعليه بالمطولات. ولكننا بحاجة الى التطرق الى ماهو الأساس المقوّم للمذهب الإمامي والقاعدة العريضة له ألا وهي فكرة الإمامة الاثني عشرية المعصومة والمنصوص عليها التي يمكننا تحليلها الى أربعة عناصر أساسية:

١ ـ وجوب الإمامة
٢ ـ عصمة الإمام
٣ ـ حاجة الإمام الى النصّ
٤ ـ كون الأئمة اثني عشر إماماً

وجوب الإمامة

أما وجوب الإمامة فهو مما اجمعت عليه الأُمّة بالجملة، ولم يخالف فيه إلاّ الشاذ الذي لايعتد بخلافه; والأمر أشهر من ان يستشهد له، ويكفي أن ننقل فيه كلام ابن حزم الأندلسي فقد كتب يقول: «اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وان الأُمّة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله(صلى الله عليه وآله) ، حاشا النجدات من الخوارج، فإنهم قالوا: لا يلزم الناس فرض الإمامة وإنّما عليهم أن يتعاطوا الحقّ بينهم... وقول هذه الفرقة ساقط يكفي من الرد عليه وابطاله اجماع كلّ من ذكرنا على بطلانه، والقرآن والسنة قد ورد بإيجاب الإمام، من ذلك قول الله

تعالى: (**اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**) مع أحاديث كثيرة صحاح في طاعة الأئمة وإيجاب الإمامة»[٢٧].

وبعد الفراغ من وجوبها جرى البحث بين المسلمين في أن وجوبها عقلي أم نقلي؟ وان تعيين الإمام واجب على الله أم على الأمة؟ وان الوجوب مطلق أم مقيّد بظرف معين كظرف الحرب والخوف أو ظرف الأمن والاستقرار؟ وأن الإمامة من الفروع أم الأصول؟ وهل أنها منصب سياسي أم سياسي وديني معاً؟

ورأي الإمامية في كلّ هذه الفروع هو أن الوجوب عقلي لأن الإمامة لطف واللطف هو مايقرب العبد من الطاعة ويبعده عن المعصية دون ان يصل حدّ الالجاء، وحيث ان اللطف واجب لعدم امكان تحصيل الغرض إلاّ به فالإمامة واجبة عقلاً، وان وجوبها على الله وليس على الأمّة، وأنه وجوب مطلق لايتقيد بظرف دون آخر لكون المقتضي وهو اللطف مطلق. وحيث انها تقع في امتداد النبوة وتعد استمراراً لها وان الدليل الذي يوجب النبوة بنفسه يوجبها، وان الاعتقاد لايتم إلاّ بها، والاعمال لاتقبل بدونها، والتقليد لايجوز فيها بل يجب الاعتقاد بها عن دليل وبرهان، وانها تشارك النبوة في اشتراط العصمة فيها، وكون سنة الإمام(عليه السلام) حجة، لأنها مشتقة من سنة النبي(صلى الله عليه وآله)،ومن أجل هذه الخصائص كلها عُدّت الإمامة أصلاً من أصول الدين خلافاً للمذاهب الأخرى التي جعلتها فرعاً فقهياً، ومن الطبيعي أن تكون الإمامة بعد هذا كله منصباً دينياً وسياسياً معاً، فالإمام حجة في المعارف الدينية كما هو حجة في قيادة الأمة ورعاية شؤونها[٢٨].

ومن مجموع هذه الخصائص يتضح لنا ان المذهب الإمامي يعطي للإمامة ثقلاً وزخماً ومكانة أعلى من السلطات الزمنية المعهودة في المجتمعات البشرية وأقل من نبوة النبي الأعظم(صلى الله عليه وآله)بحيث تكون مرحلة وسطى بينهما. وقد أشبعت كتب الكلام الإمامي البحث في مكانة الإمامة ومنزلتها وضرورتها للرسالة الإسلامية الخاتمة.

(٢٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد الأندلسي: ج٤ ص١٨٧.

(٢٨) انظر: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد للشيخ الطوسي ص ٢٩٦ - ٣٠٤، وكشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلي، ص ٣٢٤، ص ٣٦٢ - ٣٦٣، وعقائد الإمامية للشيخ محمّد رضا المظفر ص ٦٤ - ٦٥، والشافي في الإمامة للشريف المرتضى ج ١، وخلاصة علم الكلام للشيخ عبدالهادي الفضلي ص ٢٩٠ - ٢٩٦.

إن وجود الإمامة الى جنب النبوة ظاهرة سائدة في تأريخ النبوات. وإذا كان لهذا الاجراء السماوي أهمية بالنسبة للنبوات السابقة على الإسلام فلاشك أن هذه الأهمية تصبح مضاعفة بالنسبة لرسالة عالمية خالدة خاتمة كالرسالة الإسلامية، ولا تنحصر هذه الأهمية بعصر حضور الإمام(عليه السلام) بل تمتد لعصر غيبته أيضاً. لأن إقامة النظام الإسلامي ضرورة شرعية في كلّ مكان وزمان. فعندما يقام هذا النظام في زمن غيبة الإمام ستهيمن عليه اجواء الإمامة ومزاياها الروحية المركّزة، وستحيطه بإطار مكثف من القداسة التي تمنح التجربة السياسية والاجتماعية أقصى مايتصور من الزخم والفاعلية والاستقامة وتتحفها بضمانة لا مزيد عليها في هذه الجوانب.

عصمة الإمام

أما عصمة الإمام فتعني في الفكر الإمامي، «ان الإمام يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ماظهر منها ومابطن من سنّ الطفولة الى الموت عمداً وسهواً كما يجب ان يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان»[٢٩].

وهي مع ذلك لاتعني الالجاء الى الطاعة وسلب القدرة على المعصية لأن ذلك يستدعي بطلان الثواب والعقاب. وإنّما تعني إعداد المعصوم لنفسه وتلقيه تربية من شأنها ايجاد أعلى الاستعدادات للطاعة والمنفّرات عن المعصية مقرونة بتوفيق إلهي.

جاء عن محمّد بن أبي عمير أنه قال: ماسمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم في طول صحبتي إياه شيئاً أحسن من هذا الكلام في صفة عصمة الإمام، فإنّي سألته يوماً عن الإمام أهو معصوم؟ قال: نعم، قلت: فما هي صفة العصمة فيه وبأي شيء تعرف؟ قال ان جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها. الحرص والحسد والغضب والشهوة فهذه منتفية عنه، لايجوز أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهي تحت خاتمه، لأنه خان المسلمين فعلى ماذا يحرص؟ ، ولا يجوز أن يكون حسوداً لأن الإنسان إنّما يحسد من هو فوقه وليس فوقه أحد فكيف يحسد من دونه؟ ولايجوز أن يغضب لشيء من أُمور الدنيا إلاّ أن يكون غضبه لله عز وجل، فإن الله قد فرض عليه إقامة الحدود وأن لاتأخذه في الله لومة لائم، ولا رأفة في دينه حتى يقيم حدود الله عزّ وجلّ، ولايجوز أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة لأن الله عزّ وجلّ

(٢٩) عقائد الإمامية، محمّد رضا المظفر: ص ٦٧.

حبّب إليه الآخرة كما حبب الينا الدنيا فهو ينظر الى الآخرة كما ننظر الى الدنيا فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح؟ وطعاماً طيباً لطعام مرّ؟ وثوباً ليناً لثوب خشن ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية؟»[٣٠].

وقد أقام الإمامية أدلّة عديدة على وجوب العصمة في الإمام. منها، أن الرعية إنّما احتاجت الى إمام فلأنها غير معصومة فاذا كان الإمام بنفسه غير معصوم احتاج هو بنفسه الى إمام معصوم. وهذا ينتهي إما الى التسلسل وهو باطل وإمّا الى وجوب عصمة الإمام وهو المطلوب[٣١]، ومنها ان الإمام حافظ للشرع ويلزم من هذه الوظيفة أن يكون معصوماً ولو لم يكن كذلك لاحتمل بحقه التفريط بالشرع[٣٢]. ومن الأدلّة النقلية قوله تعالى: (**إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين**)[٣٣]، وآية التطهير: (**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**)[٣٤].

وبثبوت شرط العصمة يثبت شرط النص. ذلك أن العصمة أمر لا يمكن الإحاطة به وإثباته في شخص ما إلاّ بالنص. وإذا كان النبي(صلى الله عليه وآله) قد أرشد الناس الى أدنى الأُمور من شؤونهم المعاشية والسلوكية فكيف يُنسب إليه اهمال اهم الأُمور في حياتهم بعده(صلى الله عليه وآله) وهو الإمامة والنص على الإمام من بعده؟

ومن هنا اعتقدت الإمامية بعدم امكان ثبوت الإمامة بغير النصّ خلافاً لباقي المسلمين الذين انكروا النص من الأساس أو جعلوه أحد طريقين تتم الإمامة بأي منهما، قال الشيخ المظفر، «نعتقد ان الإمامة كالنبوة لاتكون إلاّ بالنصّ من الله تعالى على لسان رسوله أو لسان الإمام المنصوب بالنص. إذا اراد أن ينص على الإمام من بعده، وحكمها في ذلك حكم النبوة بلا فرق. فليس للناس أن يتحكموا فيمن يعيّنه الله هادياً ومرشداً لعامة البشر، كما ليس لهم حقّ تعيينه أو ترشيحه أو انتخابه لأن

(٣٠) بحار الأنوار، محمّد باقرالمجلسي: ج٢٥ ص١٩٢. انظر كذلك كشف المراد : ص ٣٦٥.

(٣١) الاقتصاد، محمّد بن الحسن الطوسي: ص ٣٠٥. انظر كذلك تلخيص الشافي للطوسي: ج٢ ص١٨٤.

(٣٢) كشف المراد، العلامة الحسن بن المطهر الحلي: ص ٣٦٤، انظر كذلك عقائد الإمامية: ص٦٧ .

(٣٣) البقرة: ١٢٤.

(٣٤) الأحزاب: ٣٣.

الشخص الذي له من نفسه القدسية استعداداً لتحمل اعباء الإمامة العامة وهداية البشر قاطبة يجب إلاّ يعرف إلاّ بتعريف الله ولا يعيّن إلاّ بتعيينه»[٣٥].

وفي البحار عن الإمام السجاد(عليه السلام) أن «**الإمام منا لايكون إلاّ معصوماً وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها فلذلك لايكون إلاّ منصوصاً**»[٣٦].

ومن الناحية التأريخية دلّت الأخبار المتواترة والمستفيضة من طرق الفريقين على ان النبي(صلى الله عليه وآله) نصّ على إمامة الإمام علي(عليه السلام)والأئمة من بعده، كما دلت الأخبار المروية بطرق الإمامية على أن السابق من الأئمة نصّ على إمامة اللاحق منهم. ومن النصّ على إمامة الإمام علي(عليه السلام) حديث الغدير وحديث المنزلة وغيرهما. ومن النص على الأئمة جميعهم ماروي عن النبي(صلى الله عليه وآله) انه قال للحسين(عليه السلام): «**يا أباعبدالله أنت سيد من السادة، وأنت إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة تاسعهم قائمهم**»[٣٧] ولمن شاء التفصيل ان يراجع المطولات الكثيرة التي كتبت في هذا المجال، كالشافي في الإمامة وتلخيص الشافي وموسوعة الغدير وغير ذلك.

الإمامة الاثني عشرية

أما عدد الأئمة وكونهم اثني عشر إماماً فقد استفاض النقل من طرق السنّة في صحاحهم ومسانيدهم، ومنها صحيح البخاري ومسلم أن الأئمة أو الخلفاء أو النقباء أو الأمراء - على اختلاف التعابير - من قريش وانهم اثنا عشر[٣٨]. وهذا العدد لاينطبق على الخلفاء الراشدين لأنهم أربعة، ولا على الأمويين لأنهم ثلاثة عشر ولا على الخلفاء العباسيين لأنهم سبعة وثلاثون. ومن هنا تحير علماء السنّة في تفسير هذه الطائفة من الأحاديث، فاضطر بعضهم الى انتقاء اثني عشر اسماً من الراشدين والأمويين والعباسيين، ولفّق من الجميع اثني عشر اسماً منتخباً من هؤلاء. ولكن ذلك تدبير لايغني من الحقّ شيئاً. وتبقى الحقيقة هي ان هذه الطائفة من الأحاديث لاتلتئم

(٣٥) عقائد الإمامية، محمّد رضا المظفر: ص ٧٤. انظر كذلك الاقتصاد للشيخ الطوسي: ص ٣١٣ وكشف المراد للعلامة الحلي ص ٣٦٦.

(٣٦) بحار الأنوار، محمّد باقر المجلسي: ج٥ ص١٩٤.

(٣٧) مقتضب الأثر، أحمد بن عياش الجوهري: ص٩، ط قم .

(٣٨) صحيح البخاري، محمّد بن إسماعيل البخاري: ج٨ ص١٢٧، ط دار الفكر، وكذلك صحيح مسلم : ج٦ ص٣ ، ط دار الفكر .

إلاّ مع مذهب الإمامية. ولا تنسجم إلاّ مع التفسير الاثني عشري للإمامة، ومن الأولى الأخذ بهذا التفسير وعدم تخطّي الاعتبارات العلمية الصحيحة والاضطرار الى مسالك تتناقض مع السليقة الطبيعية للتفكير البشري.

ومن الغريب ان يتحدث أحد الباحثين عما أسماه بفكرة الأُسرة المقدسة والوراثة عند الإمامية، ثم يحاول التشكيك بالفكرة الاثني عشرية من خلال القول بأن: «الدكتور النشّار لاينكر كون قدسية العدد ١٢ ذاتها قد تكون بفعل تأثيرات فيثاغورية ـ إلاّ بأستثناء واحد كما يقول هو ـ أن نجد له مخرجاً من القرآن والسنّة»[٣٩].

فإن التأثيرات الفيثاغورية إذا كان لها من دور في إنشاء قدسية العدد ١٢ فلابد أن تكون هذه التأثيرات قد وصلت الى القرآن الذي كرر هذا الرقم خمس مرات منها قوله تعالى : **(ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثنا عشر نقيباً)**[٤٠] فهل يمكن القول بأن هذه الآية مستوحاة من الأفكار الرياضية لفيثاغورس؟

أما فكرة الأُسرة المقدسة والوراثة فهي غريبة تماماً عن نظرية الإمامة الاثني عشرية، فإن أحداً من علماء الإمامية لم يقل بأن الأئمة(عليهم السلام) استحقوا الإمامة عن طريق الوراثة. وأن النَسب هو الملاك في تعيين الإمام كما هي سيرة الحكم الملكي!!. والأساس الوحيد إنّما هو الأفضلية على سائر المعاصرين للإمام في العلم والعمل، ويأتي النصّ من النبي(صلى الله عليه وآله) أو الإمام السابق كطريق للكشف عن الأفراد المتمتعين بهذه الصفة، ومن الناحية الواقعية شهد التأريخ بتفوّق الأئمة الاثني عشر على أهل زمانهم في المعارف الدينية وفي سيرتهم العملية معاً، بحيث كانوا المرجع الذي يؤول إليه الآخرون، والقدوة التي يحتذيها المجتمع في التقوى. وفي الوقت نفسه لم يحدّث التأريخ عن أحد من الأئمة(عليهم السلام) انه كان تلميذاً عند فقيه من فقهاء عصره سوى ماكان يأخذه من الإمام السابق عليه، وللاستشهاد التأريخي على ذلك مجال واسع اختصت به الكتب المعنية بحياة الأئمة وسيرتهم العلمية والأخلاقية والروحية.

ومن الممكن الافتراض بأن النصّ والتعيين يمثل أجراءً سماوياً خاصاً بمرحلة معينة من حياة الرسالة الإسلامية، فإذا انقضت تُرك الخيار للأمّة في اختيار من تراه

(٣٩) الفكر السلفي عند الشيعة الاثنا عشرية، علي حسين الجابري: ص١٧٣، ص١٨١ ـ ١٨٢.

(٤٠) المائدة، ١٢ وتكرر هذا الرقم في الآيات التالية: سورة التوبة الآية ٣٦، سورة البقرة الآية ٦٠، سورة الأعراف الآية ١٦٠.

الحاكم الأفضل لها، ضمن شروط محددة سلفاً من قبل الشارع. وكأن التخطيط السماوي اقتضى انجاز الدورة الحضارية الأولى للرسالة الإسلامية تحت نظر وإشراف الإمامة الاثني عشرية المعصومة والمنتخبة سماوياً ليتسنى للمسلمين بعد ذلك انجاز الدورات اللاحقة في ضوء التدريب والمران المأخوذ من الدورة السابقة، وعلى أساس القواعد التي قامت عليها. وفي أجواء الغيبة المشحونة روحياً باستشعار رقابة الإمام الغائب لسير الرسالة واستمرار العناية السماوية بالحضارة الإسلامية. اليس تفسيراً كهذا أولى وأفضل من القول بالتأثيرات الفيثاغورية؟ ولماذا نعطي لفيثاغورس حضوراً في صميم عقيدتنا وحضارتنا وتراثنا ونستبعد دور الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله)الذي استفاضت عنه الأخبار بأن الأئمة اثنا عشر؟ ان تفكيراً كهذا لاتساعد عليه الاعتبارات العلمية فضلاً عن الدينية.

كتب الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر(قدس سره) في هذا المضمار يقول: «ويلاحظ في تأريخ العمل الرباني على الأرض ان الوصاية كانت تعطى غالباً لأشخاص يرتبطون بالرسول القائد ارتباطاً نسبياً أو لذريته وأبناءه، وهذه الظاهرة لم تتفق فقط في أوصياء النبي محمّد(صلى الله عليه وآله) بل اتفقت في أوصياء عدد كبير من الرسل قال تعالى: **(ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان)**فأختيار الوصي كان يتم عادة من بين الأفراد الذين انحدروا من صاحب الرسالة ولم يروا النور إلاّ في كنفه وفي اطار تربيته وليس هذا من أجل القرابة بوصفها علاقة مادية تشكل أساساً للتوارث، بل من أجل القرابة بوصفها تشكل عادة الإطار السليم لتربية الوصي، وإذا لم تحقق القرابة هذا الإطار فلا أثر لها في حساب السماء، قال تعالى: **(وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمّهنّ قال إنّي جاعلك للناس إماماً قال ومن ذرّيتي قال لاينال عهدي الظالمين)**[٤١].

(٤١) خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، محمّد باقر الصدر: ص٣٤ .

الدور الفكري للأئمة(عليهم السلام) **في حياة المسلمين**

جاء الإسلام بمثابة ثورة فكرية تهدف الى اجتثاث عوامل التخلف وبناء صرح فكري يليق بمكانة الإنسان كخليفة لله في أرضه. وتعد فكرة التوحيد المحور لهذه الثورة لأنها تعني رفض محدودية المادة واطلاق حركة الفكر في فضاء لامتناهي. وبالتالي فهي إلغاء لإله زائف محدود يؤدي الارتباط به الى فرض أطر ضيقة على التفكير الإنساني، واقرار بالإله المطلق الحقيقي الذي يؤدي الارتباط به الى اطلاق حركة الفكر في فضاء لا متناهي، ومن هنا جاء القرآن الكريم ظاهرة علمية فريدة من نوعها في تاريخ الإنسان من جهة اهتمامه بالعلم والفكر. فقد تكررت فيه مادة (فكر) ١٨ مرة، ومادة (دَبَر) أربع مرات، ومادة (نظر) ٩٠ مرة، ومادة (فقه) ٢٠ مرة، ومادة (قرأ) ١٧ مرة، ومادة (علم) ٧٨٠ مرة ومادة (عقل) ٤٩ مرة، ومادة (كتب) ٣١٩ مرة، ومادة (قلم) ٤ مرات، ومادة (صحف) ٨ مرات. ويكفي ان كتاب الإسلام اسمه القرآن وهو مشتق من القراءة وأن أوّل مانزل منه قوله تعالى «**اقرأ باسم ربك الذي خلق**»[٤٢] وانه افتتح إحدى سوره بالقسم بالقلم «**نون والقلم ومايسطرون...**»[٤٣].

ولم تكن سيرة النبي الأعظم(صلى الله عليه وآله) وسنته أقلّ اهتماماً بذلك. فقد حفلت حياته الشريفة بشواهد كثيرة في هذا المجال، ويكفيه انه صاحب القولة الشهيرة: «**اطلبوا العلم ولو كان في الصين**» و «**طلب العلم فريضه على كلّ مسلم**» وأن القرآن الكريم اسند الى النبي(صلى الله عليه وآله)مهمة تعليم امته في أربع آيات منها قوله تعالى: «**هو الذي بعث في الآميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة**»[٤٤].

وعلى هذه السيرة جرى أئمة أهل البيت(عليهم السلام) فكانت حياتهم مليئة بالعطاء العلمي بكل مالهذه الكلمة من معنى وأبعاد. ومما له مغزى عميق في هذا الجانب ما

(٤٢) العلق: ١.

(٤٣) القلم: ١.

(٤٤) الجمعة: ٢ والآيات الأخرى هي البقرة: ١٢٩و ١٥١، آل عمران: ١٦٤.

قاله السيوطي في تدريب الراوي: انه كان بين السلف اختلاف كثير في كتابة العلم فكرهها كثير وأباحها طائفة وفعلوها منهم علي وابنه الحسن[٤٥] ولابد لنا هنا من استعراض السيرة العلمية للرسول(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام)وآثارهم الفكرية، ونقصد بالآثار هنا - وبنوع من التوسع - كلّ ماجمع بين دفتين مما دوّنه النبي(صلى الله عليه وآله)والأئمة(عليهم السلام)بخطهم، وان لم يكن المضمون لهم، وما كان خطه ومضمونه منهم، وما كان مضمونه ونصوصه منهم ولكن جمعه آخرون ودوّنوه بين دفتين.

المنبع النبوي لعلوم أهل البيت(عليهم السلام)

إنّ علوم أهل البيت(عليهم السلام) مأخوذة من مشكاة الرسول(صلى الله عليه وآله)، وهم عيبة علمه وخزنة أسراره وورثة أخباره، وهذا واضح من حديث الثقلين، ولولا ذلك لما كان لهذا الحديث مضمون واضح ولا معنى لائح، وكذا حديث: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**» وقول الإمام عليّ(عليه السلام): «**علّمني رسول الله ألف باب كلّ باب يفتح ألف باب**»[٤٦]، وقد اختصّت بهذا الباب مؤلفات عديدة وكتب كثيرة استقت من مصادر الفريقين دلائلها.

وإذا كان صحابة الرسول(صلى الله عليه وآله) قد منعوا كتابة الحديث النبوي بعد وفاته فإنّ الإمام علي(عليه السلام) اختصّ من بينهم بكتابته وتدوين الإرث النبوي في كتاب كان يعرف على لسان الأئمة(عليهم السلام) من بعده باسم «كتاب عليّ» اسمه الجامعة يقع في سبعين ذراع من إملاء الرسول(صلى الله عليه وآله) وخط عليّ(عليه السلام)، وقد وصفه الإمام علي(عليه السلام) بنفسه بأنّ فيه كلّ شيء حتى أرش الخدش[٤٧] .

(٤٥) تدريب الراوي، السيوطي: ص ٢٧٦ ط دار الفكر .

(٤٦) انظر مصادر هذه الأحاديث وممّا هو على غرارها من هامش كتاب المراجعات للعلامة عبدالحسين شرف الدين وتحقيقات الشيخ حسين الراضي حولها.

(٤٧) بحار الأنوار: ٤٢٤/٣١، قال الإمام عليّ(عليه السلام) لطلحة: «**يا طلحة إنّ كل آية أنزلها الله جلّ وعلا على محمّد**(صلى الله عليه وآله)**عندي بإملاء رسول الله**(صلى الله عليه وآله) **وخط يدي وتأويل كلّ آية أنزلها الله على محمّد**(صلى الله عليه وآله) **وكلّ حلال وحرام أو حدّ أو حكم أو شيء تحتاج إليه الأمة الى يوم القيامة عندي مكتوب بإملاء رسول الله**(صلى الله عليه وآله) **وخط يدي حتى أرش الخدش**».

وكان الإمام الصادق(عليه السلام) يقول: «**حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدّي وحديث جدّي حيث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أميرالمؤمنين**(عليه السلام) **وحديث أميرالمؤمنين حديث رسول الله**(صلى الله عليه وآله)»[٤٨] .

وسئل الإمام الصادق يوماً رجل عن مسألة فأجابه الإمام ثم قال السائل: أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ فقال له: «**مه ما اجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله**(صلى الله عليه وآله) **لسنا من أرأيت في شيء**»[٤٩] .

وقال الإمام الباقر(عليه السلام) لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: «**شرّقا وغرّبا لن تجدا علماً صحيحاً إلاّ شيئاً يخرج من عندنا أهل البيت**»[٥٠]، وقال الإمام الصادق(عليه السلام) : «**إنّ العلماء ورثة الأنبياء. وذلك أن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً وإنّما ورّثوا أحاديث من أحاديثهم فمن أخذ شيئاً منها فقد أخذ حظاً وافراً فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه فإنّ فينا أهل البيت في كلّ خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»[٥١] .

قال الإمام الباقر(عليه السلام) لمحمّد بن مسلم: «**لا تذهب بكم المذاهب فوالله ما شيعتنا إلاّ من أطاع الله عزّ وجل**»[٥٢] .

وعنه(عليه السلام) يخاطب جابر الجعفي: «**يا جابر أكتفي من ينتحل التشيّع أو يقول بحبّنا أهل البيت فوالله ما شيعتنا إلاّ من اتقى الله وأطاعه وما كانوا يعرفون يا جابر إلاّ بالتواضع والتخشع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبرّ بالوالدين والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلاّ من خير... فقلت** يابن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة، فقال: **يا جابر لا تذهبنّ بك المذاهب حسب الرجل أن يقول: أحبّ عليّاً وأتولاّه ثم لا يكون مع ذلك فعّالاً؟ فلو قال: إنّي أحبّ رسول الله فرسول الله**(صلى الله عليه وآله) **خير من عليّ ثم لا يتّبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبّه إياه شيئاً فاتقوا الله واعملوا لما عند الله. ليس بين الله وبين أحد قرابة أحبّ العباد الى الله عزّ وجل وأكرمهم عليه أتقاهم واعملهم بطاعته، يا جابر والله ما يتقرّب الى الله تبارك وتعالى إلاّ بالطاعة وما معنا براءة من النار، ولا على**

(٤٨) وسائل الشيعة: ٨٣/٢٧ ط آل البيت.
(٤٩) الكافي: ٥٨/١ ط آخوندي.
(٥٠) بحار الأنوار: ٩٢/٢ ط مؤسسة الوفاء.
(٥١) المصدر السابق.
(٥٢) الكافي: ٧٣/٢.

الله لأحد من حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ وما تنال ولايتنا إلاّ بالعمل والورع»[٥٣] .

وعن الإمام الكاظم(عليه السلام) قال: «**ليس من شيعتنا من لا تتحدث المخدرات بورعه في خدورهنّ وليس من أوليائنا من هو في قرية فيها عشرة آلاف رجل فيهم خلق لله أورع منه»**[٥٤] .

وعن الإمام الصادق(عليه السلام) قال: «**شيعتنا هم الشاحبون الذابلون الذين إذا جنّهم الليل استقبلوه بحزن»** وقال: «**شيعتنا أهل الهدى وأهل التقى وأهل الخير وأهل الإيمان وأهل الفتح والظفر»**[٥٥] .

ومن المنابع النبويّة لأهل البيت(عليهم السلام) ما يلي:

أوّلاً - آثار الرسول(صلى الله عليه وآله)

١ - جُمعت كتب الرسول(صلى الله عليه وآله) اخيراً في كتاب خاص باسم «مكاتيب الرسول» في (٦٣٧) صفحة، وذلك من قبل الشيخ المحقق الجليل الشيخ علي الأحمدي، وهي تشتمل على كتبه(صلى الله عليه وآله)الى الملوك ورؤساء القبائل للدعوة الى الإسلام وكتبه الى العمال والأمراء، وما ورد عنه(صلى الله عليه وآله) من آثار مكتوبة في العهود والأمانات، وماورد عنه(صلى الله عليه وآله) في الاقطاعات وفي موضوعات متفرقة مختلفة. ولعل أبرز ما أثر عن النبي(صلى الله عليه وآله) الوثيقة التي يُطلق بعض المؤرخين عليها اسم كتاب الموادعة بين المسلمين واليهود، ويسمّيها بعض الكتّاب المحدثين باسم دستور المدينة.

٢ - أمالي رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ذكر في الذريعة: ان هذا أوّل كتاب كتب في الإسلام من كلام البشر من إملاء النبي(صلى الله عليه وآله) وخط الوصي. والنسخة التامة منه مذخورة عند الحجة المنتظر كسائر مواريث الأنبياء[٥٦] ، وهو كتاب مدرج عظيم ذكر النجاشي في ترجمة محمّد بن عذافر حديثاً واحداً منه[٥٧] وقطعة من هذه

(٥٣) الكافي: ٧٤/٢ ـ ٧٥.

(٥٤) الكافي: ٧٩/٢.

(٥٥) الكافي: ٢٣٣/٢.

(٥٦) الذريعة: ج٢ ص ٣٠٦ ط دار الأضواء بيروت .

(٥٧) رجال النجاشي، أحمد بن علي النجاشي: ص ٣٦ ط قم.

الأمالي موجودة بعينها في المجلس السادس والستين من أمالي الصدوق تقرب من (٣٠٠) بيت رواها بإسناده عن الصادق(عليه السلام)، وقال الإمام الصادق في آخرها انه جمعها من الكتاب الذي هو إملاء رسول الله(صلى الله عليه وآله) وخط علي(عليه السلام)، وهي غير الجفر والجامعة والصحيفة التي طولها سبعون ذراعاً، وان كان الجميع من إملاء الرسول(صلى الله عليه وآله) وخط الإمام(عليه السلام).

ثانياً ـ آثار أمير المؤمنين(عليه السلام)

١ ـ جمع القرآن الكريم وتأويله

ذكر ابن شهر آشوب في أوّل معالم العلماء: «ان أوّل من صنف في الإسلام أمير المؤمنين(عليه السلام) جمع كتاب الله جلّ جلاله»[٥٨]وعلّق السيّد محسن الأعرجي على ذلك بقوله: «كأنه انما قد عدّ جمع القرآن المجيد في التصنيف لأنه اراد بالتصنيف مطلق التأليف، أو لأنه(عليه السلام) لم يقتصر فيما جمع وجاءهم به على التنزيل، بل ضمّ إليه البيان والتأويل فكان أعظم مصنف»[٥٩] واضاف صاحب الأعيان باحتمال كون المراد جمعه على ترتيب النزول[٦٠]ثم نقل عن السيوطي في الإتقان أن محمّد بن سيرين قال عن مصحف الإمام علي(عليه السلام)هذا: «لو أصبت ذلك الكتاب كان فيه العلم».

وفي فهرست النديم أن ذلك المصحف هو أوّل مصحف جمع فيه القرآن، وانه كان موجوداً عند اهل جعفر، وان النديم نفسه رأى عند أبي يعلى حمزة الحسني مصحفاً قد سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن على مرّ الزمان[٦١].

وذكر السيّد العاملي أن هناك مصحفاً منسوباً الى خط الإمام(عليه السلام)موجود في الخزانة الغروية، وانه رآه سنة (١٣٥٣هـ) وفي آخره عبارة: كتبه علي بن أبي طالب في سنة أربعين من الهجرة[٦٢]. وذكر أيضاً ان هناك جزءاً من القرآن المجيد منسوب الى خطه الشريف من أوّل سورة هود الى آخر سورة الكهف، رآه في

(٥٨) معالم العلماء، محمّد بن علي بن شهرآشوب: ص ٢ ط النجف.

(٥٩) عدة الرجال، محسن بن الحسن الأعرجي: ج١ ص٩٢، تحقيق مؤسسة الهداية لأحياء التراث.

(٦٠) أعيان الشيعة، محسن الأمين: ج١ ص٨٩.

(٦١) الفهرست، محمّد بن إسحق النديم: ص ٣٠٧.

(٦٢) أعيان الشيعة، محسن الأمين: ص ٨٩.

الخزانة الرضوية سنة (١٣٥٣ هـ) مكتوب على الجلد الرقيق وفي آخره عبارة: كتبه علي بن أبي طالب، وذكر جزءاً آخر منسوب الى خط الإمام(عليه السلام) أيضاً.

٢ - كتاب في علوم القرآن أملى فيه أمير المؤمنين(عليه السلام) ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن، وذكر لكل نوع مثالاً يخصه، وهو الأصل لكل من كتب في أنواع علوم القرآن، وقد أورده المجلسي في البحار نقلاً عن محمّد بن إبراهيم بن جعفر النعماني عن ابن عقدة بسنده المتصل الى الإمام الصادق(عليه السلام) ، الذي نسبه بدوره الى الإمام علي(عليه السلام) ، ويبلغ (١٣) ورقة إلاّ ربع، تبلغ كلّ صفحة (١٧) سطراً وكلّ سطر (٢٣) كلمة. وقال السيّد حسن الصدر في تأسيس الشيعة، عندي منه نسخة قديمة[٦٣].

٣ - كتاب في الأخلاق. ذكر في تأسيس الشيعة: ان أوّل من أسس علم الأخلاق هو أمير المؤمنين علي(عليه السلام) ، كتب فيه كتاباً الى ولده عند منصرفه من صفين، رواه أصحابنا من عدّة طرق، منهم ثقة الإسلام الكليني في كتاب الرسائل، وقد أخرج الكتاب بتمامه إمام أهل السنة أبو أحمد الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكري في كتاب الزواجر والمواعظ... وثم ساق السند الى سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة المجاشعي، وهو كتاب طويل جمع فيه جميع أبواب هذا العلم وطرق سلوكه[٦٤].

٤ - الجامعة، وهي كتاب طوله سبعون ذراعاً من إملاء رسول الله(صلى الله عليه وآله)وخط علي(عليه السلام) مكتوب على الجلد، وهو أوّل كتاب جمع فيه العلم على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وقد تكرر ذكره في أخبار الأئمة عموماً وأخبار المواريث خصوصاً، وكان عند الباقرين(عليهما السلام) ، رآها عندهما ثقاة أصحابهما وتوارثها الأئمة بعدهما ، والظاهر انها هي المعبّر عنها في كثير من الأخبار بكتاب علي(عليه السلام) وبأسماء أُخرى كالصحيفة التي فيها ارش الخدش، وممن رآها عند الباقر(عليه السلام)سويد بن أيوب وأبو بصير، وممن رآها عند الصادق(عليه السلام) أبو بصير.

٥ - الجفر، تحدث عنه صاحب الأعيان مفصلاً، وذكر أخبار الفريقين بشأنه ثم استخلص، انه كتاب فيه العلوم النبوية من حلال وحرام وأحكام وأُصول مايحتاج إليه في أحكام دينهم ومايصلحهم في دنياهم والأخبار عن بعض الحوادث، ويمكن أن يكون فيه تفسير بعض المتشابه من القرآن المجيد. وأما عد الجفر علماً من العلوم

(٦٣) تأسيس الشيعة، حسن الصدر: ص ٣٣٤.

(٦٤) تأسيس الشيعة، حسن الصدر: ص ٤٠٤.

يستنبط منه علم الحوادث المغيبة، كما يفهم من كشف الظنون وغيره، وكما أرتكز في أذهان بعض الناس، فلم نطلع على مايؤيده، وذكر أخيراً ان وجود كتاب باسم الجفر منسوب الى أميرالمؤمنين(عليه السلام) ممّا تسالم عليه الشيعة والسنّة معاً[٦٥]. وأشار كارل بروكلمان الى وجوده في المتحف البريطاني[٦٦].

٦ ـ صحيفة الفرائض، أو صحيفة كتاب الفرائض أو فرائض عليّ. وهذه أيضاً كانت عند الأئمة، ورآها عندهم الثقاة من أصحابهم، ونقل الكثير من محتوياتها في كتب الشيعة.

٧ ـ كتاب في زكاة النعم رواه عنه ربيعة بن سميع، ذكره النجاشي في أوّل كتابه، فروى بسنده عن ربيعة هذا عن أمير المؤمنين(عليه السلام) انه كتب له كتاباً في صدقات النعم وما يؤخذ من ذلك، وذكر الكتاب.

٨ ـ كتاب في أبواب الفقه جمعه علي بن أبي رافع كاتب الإمام(عليه السلام).

٩ ـ كتاب آخر في الفقه ذكره السيّد العاملي في الأعيان ولم يفصّل فيه.

١٠ ـ عهده الى مالك الأشتر.

١١ ـ وصيته لمحمد ابن الحنفية.

١٢ ـ الصحيفة العلوية والتحفة المرتضوية من أدعية الإمام علي(عليه السلام) ، تحتوي على (١٥٦) دعاءً، جمعها الشيخ عبدالله بن صالح بن جمعة المتوفّى سنة (١١٣٥ هـ)، من كتب الأصحاب مرسلاً ، نعم له حواشي يذكر فيها عند كلّ دعاء سنده في الحاشية. طبعت سنة (١٢١٩هـ) بإيران وفي بمبي سنة (١٣١٩ هـ) ثم في إيران سنة (١٣٢٥ هـ).

١٣ ـ الصحيفة العلوية مجموعة من الأدعية والمناجاة المنسوبة الى الإمام(عليه السلام)، جمعت بهذا الاسم، جمعها الشيخ حسين النوري المتوفّى سنة (١٣٢٠هـ) وهي تشتمل على (١٠٣) أدعية، جعلها استدراكاً للصحيفة السابقة. طبعت سنة (١٣٢١ هـ).

١٤ ـ مسنده الذي جمعه النسائي، أي ما أثر عنه من الأحاديث والروايات.

(٦٥) أعيان الشيعة، محسن الأمين: ج١ ص٩٤ ـ ٩٧.

(٦٦) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان: ج١ ص٢٦٠.

١٥ - جنّة الأسماء، كتاب ذكره صاحب كشف الظنون[٦٧]ونسبه الى الإمام علي(عليه السلام)وذكر انه من جمع حجة الإسلام الغزالي. وعلق صاحب الأعيان بعدم اتّضاح معنى وموضوع هذا الكتاب وكذا نسبة الكتاب الى الإمام، ومعنى جمع الغزالي له، واحتمل وقوع تحريف في الكلام[٦٨].

١٦ - نهج البلاغة جمعه الشريف الرضي من خطب وكتب ورسائل وكلمات الإمام علي(عليه السلام).

١٧ - مستدرك نهج البلاغة جمعه الشيخ هادي كاشف الغطاء.

١٨ - مائة كلمة جمعها الجاحظ.

١٩ - صحيفة الديات التي كان الإمام يعلقها بسيفه كما ورد في بعض الأخبار.

٢٠ - غرر الحكم ودرر الكلم، جمع عبد الواحد الآمدي التميمي، جمعه من حكمه القصيرة وقد دعاه الى جمعه ما تبجج به الجاحظ في جمعه المائة كلمة.

٢١ - دستور معالم الحكم، جمع محمّد بن سلامة القضاعي الشافعي قاضي مصر، المتوفّى سنة (٤٥٤ هـ).

٢٢ - نثر اللئالئ، جمع الفضل بن الحسن الطبرسي صاحب مجمع البيان.

٢٣ - مطلوب كلّ طالب من كلام الإمام علي بن أبي طالب، جمعه أبوإسحق الوطواط الأنصاري، فيه مائة من الحكم المنسوبة إليه طبع فى لبسك وبولاق، وترجم الى الفارسية والألمانية.

٢٤ - قلائد الحكم وفرائد الكلم، جمع القاضي أبي يوسف يعقوب بن سليمان الإسفرائيني.

٢٥ - معميات علي(عليه السلام).

٢٦ - مسند أمير المؤمنين ليعقوب بن شيبة.

٢٧ - أمثال الإمام علي بن أبي طالب، مطبوع مرتب على حروف المعجم.

٢٨ - مسند أمير المؤمنين(عليه السلام) لأبي أحمد عبدالعزيز بن يحيى بن أحمد الجلودي شيخ جعفر بن قولويه.

٢٩ - ديوان أمير المؤمنين(عليه السلام).

(٦٧) كشف الظنون: ج١ ص٦٠٧ ط دار إحياء التراث العربي .

(٦٨) كشف الظنون: ج١ ص٥٣٩.

ثالثاً ـ آثار السيّدة فاطمة الزهراء(عليها السلام)

١ ـ مصحف فاطمة(عليها السلام) المذكور في العديد من الأخبار والروايات التي اختلفت في تحديد مضمونه ومحتواه واتفقت في كونه من ودائع الإمامة التي تنتقل من إمام الى آخر حتى وصلت الى الإمام المهدي(عليه السلام) وانه ليس نسخة من القرآن الكريم.

٢ ـ مسند فاطمة(عليها السلام) يروى فيه كثيراً عن أبي الحسين محمّد بن هارون بن موسى بن أحمد التلعكبري وآخرين، ولعله هو الذي عدّه ابن شهر آشوب من الكتب المجهولة المؤلف.

رابعاً ـ آثار الإمام علي بن الحسين السجاد(عليه السلام)

١ ـ الصحيفة الكاملة السجادية. في الأدعية المنسوبة للإمام زين العابدين(عليه السلام)وتحتوي على واحد وستين دعاءً، كانت منها نسخة عند زيد الشهيد ثم انتقلت الى أولاده، وعليها شروح عديدة وهي من المتواترات، ويعبر عنها بأخت القرآن، أو زبور آل محمّد(صلى الله عليه وآله) أو إنجيل أهل البيت(عليهم السلام)[٦٩].

٢ ـ الصحيفة الثانية السجادية، جمعها الشيخ الحر العاملي طبعت مرتين وهو استدراك على مافي الصحيفة الأولى.

٣ ـ الصحيفة الثالثة السجادية، جمعها صاحب رياض العلماء استدراكاً على مافات الصحيفة الثانية.

٤ ـ الصحيفة الرابعة السجادية، جمعها الميرزا حسين النوري استدراكاً على مافات الصحيفة الثالثة.

٥ ـ الصحيفة الخامسة السجادية، جمعها السيّد محسن الأمين العاملي.

٦ ـ رسالة الحقوق، أوردها الصدوق في خصاله، والحسن بن شعبة في تحف العقول، والسيّد العاملي في أعيان الشيعة.

٧ ـ ديوان السجاد(عليه السلام) وهو في حدود ١٥٠ بيتاً، مرتب على حروف القوافي، وكلّ حرف خمسة أبيات، وكان الشيخ البهائي أورد قافية الألف منه في الجزء الرابع من كشكوله، مع الترديد في نسبته الى الإمام، ثم ان عبدالغفار نجم

(٦٩) تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، المجلد الأوّل، الجزء الثالث: ص ٢٦٣ تحدث بشكل مفصل عن هذه الصحيفة ومواطن وجودها وشروحها.

الدولة ناشر الكشكول أورد جميع الديوان فيه وصرح بذلك في مقدمة طبعه على الحجر بطهران سنة (١٢٩٦ هـ) ، وتوجد نسخة منه عند مجيد موقر في طهران، وفي آخره تم الكتاب في ٧ محرم سنة (٢٩٨ هـ)، وشكك صاحب الذريعة بهذه التواريخ[٧٠].

خامساً ـ آثار الإمام الباقر(عليه السلام)

١ ـ مناظرة الإمام الباقر(عليه السلام) مع الهروي، موجودة في الخزانة الرضوية مع مناظرة ابن أبي جمهور ومناظرة ركن الدولة.

٢ ـ مسند الإمام الباقر، ألفه محمّدكاظم الكفائي أورد فيه كلّ ماروي عن الإمام الباقر في الكتب الأربعة.

٣ ـ تفسير الإمام الباقر(عليه السلام) نص عليه النديم في الفهرست عند ذكره الكتب المصنفة في التفسير، وذكر راويه وهو أبو الجارود زياد بن المنذر رئيس الجارودية[٧١].

٤ ـ رسالة الإمام الباقر(عليه السلام) الى سعد الخير من بني أمية.

٥ ـ رسالة أخرى من الإمام الباقر الى سعد الخير ذكرها الكليني في الكافي[٧٢].

٦ ـ كتاب الهداية. قال النديم في الفهرست: «أبو جعفر محمّدبن علي له من الكتب كتاب الهداية»[٧٣]. وفي أعيان الشيعة فسّر هذا الاسم باحتمال كون المراد به هو الإمام الباقر(عليه السلام).

سادساً ـ آثار الإمام الصادق(عليه السلام)

١ ـ رسالة في الصناعة والحجر كما نسبت إليه في طبع هندنبرج سنة (١٩٢٤م) ولعلها من رسائل جابر بن حيان.

٢ ـ الرسائل الجعفرية وهي (٥٠٠) رسالة جمعها ودوّنها جابر بن حيان في (١٠٠٠) صفحة وطبعت في ستراسبورغ.

(٧٠) الذريعة: ج٩ ص٤٣١ ق٢ ط دار الأضواء .

(٧١) الفهرست، محمّد بن إسحق النديم: ص ٣٦.

(٧٢) الكافي، محمّد بن يعقوب الكليني: ج٨ ص٥٢ طبع ايران.

(٧٣) الفهرست، محمّد بن إسحق النديم: ص ٢٤٦.

٣ ـ الإهليجة في التوحيد، رسالة من الإمام الصادق(عليه السلام) كتبها في جواب ماكتبه إليه المفضل بن عمر الجعفي يسأله فيه ان يكتب ردّاً على الملحدين المنكرين للربوبية، أوّله: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: وفقنا الله وإياك لطاعته وأوجب لنا بذلك رضوانه.. الخ، ثم أورد(عليه السلام) فيها مناظرته مع الطبيب الهندي واحتجاجه عليه بالتكلم في الإهليجة، أوردها العلامة المجلسي في البحار مع الشرح والبيان[٧٤]، وفي فهرست النديم، ان هذا الكتاب لايعرف مؤلفه وان نسبته الى الصادق محال ولم يبين وجه الإستحالة[٧٥].

٤ ـ الأهوازية وهي رسالة الإمام الصادق(عليه السلام) الى والي الأهواز المستبصر عبدالله النجاشي الجد الأعلى للنجاشي المعروف صاحب الرجال. نقلها بعينها السيّد محيي الدين في أربعينه، والشهيد في كشف الريبة وشرحها لسيد علاء الدين گلستانه.

٥ ـ مسند الإمام الصادق(عليه السلام) جمعه محمّد كاظم الكفائي، ويقع في عشر مجلدات أورد فيه كلما روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) في الكتب الأربعة.

٦ ـ تفسير الإمام جعفر بن محمّد الصادق، ذكر في الذريعة: ان فهرست مكتبة علي باشا بإسلامبول أورد هذا العنوان وعدّه من الكتب الموجودة في المكتبة، وعلق الشيخ الطهراني، بأنه لم يعثر على ذكر لهذا الكتاب في مصادر الأصحاب واحتمل كونه تفسيراً لبعض الأصحاب مروي عن الأئمة[٧٦].

٧ ـ تقسيم الرؤيا، ذكره في كشف الظنون ونسبه الى الإمام الصادق(عليه السلام)[٧٧]. وفي الذريعة ذكر الشيخ الطهراني انه لم يجد سنداً لهذه النسبة في مصدر آخر، ثم استظهر كونه من تصانيف بعض الشيعة[٧٨].

٨ ـ توحيد المفضل، وهو من تأليف الإمام الصادق ورواية المفضل في رد الدهرية وإثبات الصانع، موجود بتمامه في بحار الأنوار وقد طبع على الحجر مستقلاً بمصر وطبع ببغداد سنة (١٣٣٢ هـ) بمطبعة الآداب. وذكر المجلسي في مقدمات البحار: ان سياق كتاب التوحيد والإهليجة يدل على صحتهما[٧٩].

(٧٤) بحار الأنوار: ج٣ ص١٥٢ ـ ١٩٨ ط مؤسسة الوفاء بيروت.

(٧٥) الفهرست، محمّد بن إسحق النديم: ص ٣٧٩ ط طهران.

(٧٦) الذريعة: ج٤ ص٢٦٩ .

(٧٧) كشف الظنون: ج١ ص٤٦٨.

(٧٨) الذريعة: ج٤ ص٣٨٨ .

(٧٩) بحار الأنوار: ج١ ص٣٢ .

٩ - مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، كتاب نسب الى الإمام الصادق(عليه السلام)وهو مطبوع مع جامع الأخبار، ولكن المجلسي في مقدمات البحار ذكر: ان فيه مايريب اللبيب الماهر، واسلوبه لايشبه سائر كلمات الأئمة وآثارهم[٨٠] .

وكذلك شكّك صاحب الوسائل فيه، وجزم صاحب رياض العلماء بكونه من مؤلفات الصوفية، وظاهر السيّد علي بن طاووس في أمان الأخطار الاعتماد عليه، وكذلك الكفعمي في مجموع الغرائب، والشهيد الثاني في كشف الريبة ومنية المريد، ومسكن الفؤاد، وأسرار الصلاة، وكذا السيّد حسين القزويني في كتاب جامع الشرائع، نقل هذه الآراء صاحب الأعيان في ترجمته لحياة الإمام الصادق(عليه السلام) وذكر كارل بروكلمان هذا الكتاب في تاريخ الأدب العربي، وأشار الى وجوده في المتحف البريطاني وفي برلين[٨١].

١٠ - رسالة الإمام الصادق(عليه السلام) الى أصحابه. أوردها الكليني في أوّل روضة الكافي[٨٢]. وهي التي امر فيها الإمام اصحابه بمدارستها والعمل بها، فكانوا يضعونها في مساجد بيوتهم فاذا فرغوا من الصلاة نظروا فيها.

١١ - رسالته(عليه السلام) الى أصحاب الرأي والقياس.

١٢ - رسالته في الغنائم ووجوه الخمس، أوردها صاحب تحف العقول[٨٣].

١٣ - وصيته لعبد الله بن جندب، أوردها صاحب تحف العقول[٨٤].

١٤ - وصيته لأبي جعفر مؤمن الطاق أوردها صاحب تحف العقول[٨٥].

١٥ - رسالته في وجوه معايش العباد جواباً على سؤال ورد في هذا المجال موجودة في تحف العقول[٨٦].

١٦ - رسالته الاحتجاجية على الصوفية موجودة في تحف العقول[٨٧].

١٧ - نسخة ذكرها النجاشي في ترجمة محمّد بن ميمون الزعفراني الذي رواها عنه[٨٨].

(٨٠) بحار الأنوار: ج١ ص٣٢ .

(٨١) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان: ج١ ص٢٥٩.

(٨٢) الكافي: ج٨ ص٢ - ١٣ ط قم آخوندي .

(٨٣) تحف العقول: ص ٣٣٩، ط جامعة مدرسين .

(٨٤) المصدر السابق: ص٣٠١ .

(٨٥) المصدر السابق: ص ٣٠٧ .

(٨٦) المصدر السابق: ص ٣٣١ .

(٨٧) المصدر السابق: ص٣٤٨ .

١٨ - نسخة رواها الفضيل بن عياض عنه كما في ترجمته من رجال النجاشي[٨٩].

١٩ - نسخة رواها عبدالله بن أويس بن مالك كما في ترجمته من رجال النجاشي[٩٠].

٢٠ - نسخة رواها سفيان بن عينية كما في ترجمته من رجال النجاشي[٩١].

٢١ - نسخة رواها إبراهيم بن رجاء الشيباني كما في ترجمته من رجال النجاشي[٩٢].

٢٢ - كتاب رواه جعفر بن بشير البجلي كما في فهرست الشيخ الطوسي[٩٣].

٢٣ - رسالة أوردها الصدوق في الخصال، تتضمن شرائع الدين من الوضوء والغسل والصلاة. وكذلك مسائل الجبر والتفويض وأحكام الأطفال وعصمة الأنبياء والأئمة وخلق القرآن وعذاب القبر ومعنى الإيمان[٩٤].

سابعاً - آثار الإمام الكاظم(عليه السلام)

١ - دعاء الجوشن الصغير، منسوب الى الإمام الكاظم(عليه السلام)أوّله: «إلهي كم من عدوّ انتضى عليَّ سيف عداوته...» الى تمام ١٩ قطعة من المناجاة المبدوءة بإلهي أورده السيّد ابن طاووس في مهج الدعوات، وبعض قطعاته يقرب من ١٥ بيتاً، وذكر ان جمعاً من شيعته الحاضرين مجلسه كتبوا هذا الدعاء من املاءه(عليه السلام) ، وكانوا يحملون معهم في اكمامهم الواح آبنوس وأميال فيكتبون كلما نطق به.

٢ - وصيته(عليه السلام) لهشام بن الحكم موجودة في تحف العقول[٩٥].

(٨٨) رجال النجاشي: ص ٣٥٥ .

(٨٩) رجال النجاشي: ٣١٠ .

(٩٠) المصدر السابق: ص ٢٢٤ .

(٩١) المصدر السابق: ص ١٩٠ .

(٩٢) المصدر السابق: ص ٢٣ .

(٩٣) فهرست الطوسي: ص ٤٣، ط منشورات الرضي .

(٩٤) ذكر فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي المجلد الأوّل الجزء الثالث ص ٢٦٩ - ٢٧٣ اثنين وثلاثين كتاباً منسوباً الى الإمام الصادق مع الإشارة الى أماكن وجودها في العالم. وذكره أيضاً في المجلد الرابع ضمن بحثه عن تاريخ علم الكيمياء عند المسلمين ودور الإمام الصادق فيه، مشيراً الى ستة مؤلفات في الكيمياء نُسبت إليه(عليه السلام).

(٩٥) ذكر فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي المجلد الأوّل الجزء الثالث ص ٢٨٠ ستة آثار للإمام الكاظم(عليه السلام)وهي أدعية الأيام سبعة، ومسند، وإجاباته على أسئلة أخيه، ووصية النبي(صلى الله عليه وآله)لعلي(عليه السلام) إضافة الى ما مذكور في المتن. انظر: تحف العقول: ص ٣٨٣ .

ثامناً ـ آثار الإمام الرضا(عليه السلام)

١ ـ رسالة شرايع الدين وهي (٤٠٠) حديث أملاها الإمام الرضا على المأمون حين سأله ان يجمع له أُصول الدين والحلال والحرام. كانت نسخة منه في مكتبة المولى محمّد علي الخونساري في النجف الأشرف أوّلها «أوّل الفرائض شهادة أن لا إله إلاّ الله..» وشرحها الشيخ حسين بن محمّد بن أحمد العصفوري المتوفى (١٢١٦ هـ) وسماه بالأنوار الضوية في شرح الأحاديث الرضوية. وقد أورد الصدوق هذه الرسالة في عيون أخبار الرضا[٩٦].

٢ ـ صحيفة الرضا المعبر عنها بمسند الرضا أو الرضويات أو صحيفة أهل البيت(عليهم السلام) ، وقد أحصى بعض الأصحاب أحاديثها فوجدها (٢٤٠) حديثاً، وهي مروية بأسانيد متعددة ينتهي السند في جميعها الى أحمد بن عامر عن الرضا(عليه السلام)في سنة (١٩٤ هـ) وهناك نسخة مروية بأسناد الشيخ أمين الإسلام الطبرسي المفسر المتوفى سنة (٥٤٨ هـ) أملاها يوم الخميس غرة رجب سنة (٥٢٩هـ) عن أبي الفتح عبدالله بن عبدالكريم القشيري قراءة عليه بالحضرة الغروية في شهر رمضان سنة (٥٠١ هـ)، طبعت ضمن مجموعة في بمبي أوّلها «حديث لا إله إلاّ الله حصني، وآخرها «وأما زينة القلب فالصبر والصمت والشكر»، وطبعت بإيران وعند الشيخ هادي كاشف الغطاء نسخة يُظن أن فيها زيادات. ونسخة أُخرى بخط الشاه محمّد القائني كتبها بمشهد الرضا(عليه السلام)في ١٠ رمضان سنة (٩٤٨ هـ) عند الشيخ شير محمّد الهمداني في النجف. ونسخة ثمينة في مكتبة أمير المؤمنين عليها كتابة بتأريخ (١١٠٣ هـ). وفي الأعيان ذكر السيّد العاملي ان عنده نسخة منها، وان الشيخ عبد الواسع اليماني جلب معه نسخة من اليمن وطبعها في دمشق، وأجاز للسيد الأمين العاملي روايتها عنه بالسند الموجود في أوّلها، وهي مختلفة في المتن عن النسخة التي عنده.

ونقل عن مستدرك الوسائل رأي المحدّث النوري بأنها من الكتب المعروفة المعتمدة التي لا يدانيها في الاعتبار والاعتماد كتاب صنف قبله أو بعده[٩٧].

(٩٦) عيون أخبار الرضا: ج١ ص١٢٩، ط بيروت.

(٩٧) خاتمة مستدرك الوسائل: ج١ ص٢١٧ .

٣ ـ رسالة في الطب تنسب الى الإمام الرضا(عليه السلام) ، ويقال ان المأمون طلب من الإمام(عليه السلام) أن يكتب له رسالة في صحة المزاج وما يلزمها من تدبير الأغذية والأشربة والأدوية، فلمّا كتبها الإمام أمر المأمون بأن تكتب بماء الذهب فسميت بالرسالة الذهبية أو المذهبة، وهي التي أشار إليها الشيخ الطوسي في الفهرست في ترجمة محمّد بن الحسن بن جمهور العمي البصري[٩٨]، طبعت في بمبي وأوردها العلامة المجلسي بتمامها في كتاب السماء والعالم من البحار[٩٩].

٤ ـ الفرائض الرضوية. رسالة في المواريث منسوبة الى الإمام الرضا وليست من أجزاء فقه الرضا، نسخة منها في الخزانة الرضوية كتبت سنة (١٠٣٣ هـ) وترجمت الى الفارسية، ترجمها المولى محمّد كاظم بن حبيب الله التبريزي للسلطان محمّد قطب شاه.

٥ ـ كتاب فقه الرضا، وهو كتاب في أبواب الفقه لم يكن معروفاً قبل المجلسي، واشتهر منذ زمانه، والسبب في اشتهاره أن جماعة من أهل قم أحضروا نسخته الى مكة المكرمة فرآها القاضي الأمير السيّد حسين الإصفهاني، فجزم انه تأليف الرضا(عليه السلام)فأستنسخه وأحضره معه الى اصفهان، فرآه المجلسي الأوّل فجزم بصحته ونسبته الى الإمام الرضا(عليه السلام) وكذلك ولده المجلسي الثاني الذي فرّق أحاديثه على مجلدات كتاب البحار وجعله أحد مصادر كتابه المذكور، وقد جزم جماعة بصحة النسبة الى الإمام، وتوقف فيه آخرون، لكن جمهور المحققين ردّوا ذلك.

٦ ـ ماكتبه الى محمّد بن سنان في جواب مسائله عن علل الأحكام الشرعية. ذكره الصدوق في عيون الأخبار[١٠٠].

٧ ـ العلل التي ذكر الفضل بن شاذان انه سمعها من الرضا(عليه السلام)مرة بعد مرة وشيئاً بعد شيء، فجمعها وأطلق لعلي بن محمّد بن قتيبة النيسابوري روايتها عنه عن الرضا(عليه السلام) فإنّها في الحقيقة من تأليف الإمام(عليه السلام) وقد أوردها الصدوق في عيون الأخبار[١٠١].

(٩٨) الفهرس للطوسي: ص١٤٦ .
(٩٩) بحار الأنوار: ج٥٩ ص٣٠٦ .
(١٠٠) عيون أخبار الرضا: ج١ ص٩٥ .
(١٠١) المصدر السابق: ص ١٠٦ .

٨ ـ ماكتبه الى المأمون في جوامع الشريعة، والظاهر انها غير رسالة شرايع الدين السابقة ولكنها قريبة منها. حيث ذكر ان المأمون بعث الفضل ابن سهل ذا الرياستين الى الرضا(عليه السلام) فقال له، إنّي أُحب أن تجمع لي من الحلال والحرام والفرائض والسنن، فإنّك حجّة الله على خلقه ومعدن العلم، فدعا الإمام بدواة وقرطاس وقال للفضل: أكتب، فكتب ما أملى الإمام عليه.

٩ ـ نقل صاحب الأعيان عن خلاصة تهذيب الكمال: ان عبد السلام بن صالح وجماعة رووا عنه عدة نسخ، وعن تهذيب التهذيب: أن علي بن مهدي روى عن الإمام الرضا نسخة، وان لداود بن سليمان نسخة أيضاً عن الإمام الرضا، وكذلك عامر بن سليمان الطائي[١٠٢].

تاسعاً ـ آثار الإمام الهادي(عليه السلام)

١ ـ سئل الإمام الهادي(عليه السلام) عن مسألة الجبر والتفويض فكتب في جوابها رسالة مستقلة أوردها الحسن بن شعبة في تحف العقول[١٠٣].

٢ ـ اجوبته ليحيى بن اكثم عن مسائله موجودة في تحف العقول[١٠٤].

٣ ـ قطعة من احكام الدين ذكرها ابن شهر آشوب في المناقب عن الحميري في كتاب مكاتبات الرجال عن العسكريين[١٠٥].

عاشراً ـ آثار الإمام الحسن العسكري(عليه السلام)

١ ـ كتابه(عليه السلام) الى إسحق بن إسماعيل النيسابوري موجود في تحف العقول[١٠٦].

(١٠٢) ذكر فؤاد سزكين في المجلد الأوّل، الجزء الثالث ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤ من تأريخ التراث العربي تسعة آثار للإمام الرضا(عليه السلام) مع الإشارة الى مواطن وجودها في المكتبات.

(١٠٣) تحف العقول: ص ٤٥٨، ط جامعة مدرسين .

(١٠٤) المصدر السابق: ص ٤٧٦ .

(١٠٥) المناقب: ج٣ ص٥٢٥، ط النجف .

(١٠٦) المناقب: ج٣ ص٤٨٤ .

٢ ـ رسالة المنقبة. ذكر في مناقب ابن شهر آشوب انه خرج من عند أبي محمّد(عليه السلام) سنة (٢٥٥ هـ) كتاب ترجمته رسالة المنقبة يشتمل على أكثر علم الحلال والحرام وأوله، أخبرني علي بن محمّد بن علي بن موسى(عليه السلام)...

٣ ـ التفسير المنسوب إليه(عليه السلام) وقد تحدث عنه الشيخ الطهراني في الذريعة مفصلاً في عدة صفحات[١٠٧] مرجحاً رأي المحقق الداماد في وجود تفسيرين أحدهما للامام الهادي(عليه السلام)والآخر للإمام الحسن العسكري، وان الأوّل يقع في (١٢٠) مجلداً، وانه املاء الإمام الهادي على الحسن بن خالد البرقي، ولم يبق من مجلدات هذا التفسير أثر ولا عين. وان الثاني من املاء الإمام الحسن العسكري ورواية الشيخ الصدوق المتوفي سنة (٣٨١ هـ)، ونسخة متداولة، وقد طبع أوّلاً في طهران سنة (١٢٦٨ هـ)، ثم سنة (١٣١٣هـ)، وثالثاً في هامش تفسير القمي سنة (١٣١٥ هـ)، واعتمد عليه الشيخ النوري واستدل على ذلك في خاتمة المستدرك. وقد أملى الإمام الحسن العسكري مدة سبع سنين على ولدين كانا يكنيان بأبي يعقوب وأبي الحسن وهما من استرآباد، والتفسير مشتمل على سورة الفاتحة وسورة البقرة الى الآية (٢٨٢)منها[١٠٨].

حادي عشر ـ آثار الإمام المهدي(عليه السلام)

١ ـ الصحيفة المهدوية. مجموعة أدعية من إنشاء الإمام المهدي(عليه السلام)جمعها الميرزا محمّد بن رجب علي الطهراني، وهي تشتمل على مايقرب من (٦٠) دعاءً. فرغ من تبييضه سنة (١٣٥٨هـ).

٢ ـ الصحيفة المهدوية. جمعها الشيخ فضل الله النوري، ويعبر عنها بالصحيفة القائمية أيضاً.

٣ ـ الصحيفة الهادية والتحفة المهدوية. جمعها الشيخ إبراهيم بن محسن الكاشاني، وطبعت سنة (١٣١٨ هـ) جمع فيها التوقيعات والأدعية والزيارات الصادرة عن الناحية المقدسة.

(١٠٧) الذريعة: ج٤ ص٢٨٣ ـ ٢٩٣ .

(١٠٨) ذكر فؤاد سزكين في ص ٩٥ من الجزء الأوّل من كتابه تاريخ التراث العربي ثلاثة آثار للإمام العسكري هي التفسير المنسوب إليه وحرزاً وكلاماً في النبوة.

٤ - التوقيعات الخارجة من الناحية المقدسة، لأبي العباس عبدالله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع الحميري القمي من أصحاب الإمام الحسن العسكري. ذكره النجاشي وعبّر عنه الشيخ في الفهرست بالرسائل والتوقيعات[١٠٩] .

تدوين التراث الإمامي

وذكر الشيخ آقا بزرك الطهراني: إن ثقة الإسلام الكليني جمع مصنفات الأئمة في كتاب أسماه رسائل الأئمة. وان المولى محسن الكاشاني جمعها أيضاً في كتاب أسماه معادن الحكمة[١١٠].

هذا هو تراث النبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام) مما جمع بين دفتين من كلامهم سواء ماكان بخطهم أو بخط غيرهم[١١١]. وهو لايمثل الحقيقة الكاملة لتراثهم(عليهم السلام)الذي جمع في ستة آلاف وستمائة كتاب، كان أصحاب الأئمة قد ألفوها من أحاديث الأئمة الاثني عشر وهي المذكورة في كتب الرجال على ما ضبطه صاحب الوسائل في آخر الفائدة الرابعة من خاتمة وسائله[١١٢]. وقد امتازت من تلك الستة آلاف أربعمئة كتاب سميت بالأصول الأربعمئة، وهي التي اعتمدت كمصادر للمدونات الحديثية الأربعة المعروفة لدى الإمامية وهي:

١ - الكافي، للكليني محمّد بن يعقوب المتوفّى سنة (٣٢٨ هـ) جمعه في ثلاثين سنة، وعدد أحاديثه (٦١٩٩).

٢ - من لايحضره الفقيه، للشيخ الصدوق محمّد بن علي بن بابويه القمي، وعدد أحاديثه (٥٩٦٣) حديثاً.

٣ - التهذيب، للشيخ الطوسي محمّد بن الحسن، وعدد أحاديثه (١٣٥٩) حديثاً.

٤ - الاستبصار، للشيخ الطوسي أيضاً وأحاديثه (٥٥١١) حديثاً.

فيكون مجموع أحاديث الكتب الأربعة (٣٩٢٦٣) حديثاً.

وفي القرن الحادي عشر قام الشيخ الحر العاملي بجمع مافي الكتب الأربعة وإضافة ما أمكنه الإضافة إليه من كتب الخاصة التي عثر عليها. وفي أيّامه ألف

(١٠٩) الفهرست، محمّد بن الحسن الطوسي: ص ١٠٢ ط الشريف الرضي قم .

(١١٠) الذريعة : ج١ ص١٣.

(١١١) اعتمدنا في احصاء آثار الأئمة(عليهم السلام) على ماورد في أعيان الشيعة المجلد الأوّل وأوائل المجلد الثاني مما هو خاص بسيرة الأئمة(عليهم السلام). وكذلك على ماورد في الذريعة للشيخ الطهراني.

(١١٢) وسائل الشيعة، محمّد بن الحسن الحر العاملي: ج٢٠ ص٤٩ تحقيق الشيخ الرباني الشيرازي، ط بيروت.

الشيخ محمّد باقر المجلسي بحار الأنوار في (١١٠) جزءاً، فكان أجمع موسوعة في فنون الحديث وأنواع العلوم ومتفرقات الأخبار، إذ لم يقتصر على أحاديث الحلال والحرام، بل اشتمل على كلّ ما وصل إليه من خبر أو حديث أو معلومة في الفقه أو العقائد أو التأريخ أو الأخلاق أو الحِكم، وفي مطلع القرن الرابع عشر قام المحدث النوري المتوفّى سنة (هـ١٣٢٠) بتأليف المستدرك على الوسائل دوّن فيه كثيراً من التراث الذي اعتبره السابقون ضعيفاً، ولم يدرجوه لضعفه في مصنفاتهم، فأدرجه في تأليفه الجديد بعد ان بين وجوهاً لتصحيحه والاعتماد عليه.

وهكذا حفظ التراث العلمي للأئمة(عليهم السلام) بعدما فقد منه مافُقد. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار سعة التراث العلمي للأئمة بالصورة التي كشفت عنها الأرقام السابقة من جهة. ومكانة هذا التراث التشريعية المستمدة من مكانة الأئمة في التصور الإمامي، كسدنة وشرّاح للكتاب والسنة، وورثة للعلوم النبوية ومعيّنين للإمامة من قبل الله تعالى دون سواهم وعلى نحو اتاح للمذهب الإمامي أن يقرّر بأنّ إحدى طرق معرفة الإمام هي اعلميته على سائر أهل زمانه، من جهة ثانية. إذا أخذنا بنظر الاعتبار هاتين الجهتين ادركنا عاملاً من عوامل خصوبة التراث الإمامي الذي اعتمد على تراث الأئمة كأساس وخميرة ومنطلق له. لذا نجد أن عصر التدوين الفقهي والكلامي الإمامي بالمعنى الحقيقي للكلمة قد تأخر الى مابعد الغيبة الصغرى، فيما كان هذا العصر قد تقدم في المدرسة السنّية الى نهايات القرن الأوّل. وهذا هو السرّ الذي جعل البعض يعتقد خطأً بأن الإمامية لاسلف لهم ولا مصنّف، على مانقله أبو العباس أحمد بن علي النجاشي في مقدمة رجاله عمن ذكره بـ «السيّد الشريف أطال الله بقاءه وأدام توفيقه»[١١٣] دون تحديد للمقصود به هل هو السيّد الشريف الرضي أم المرتضى؟[١١٤]. وكان الشريف الرضي المتوفّى سنة (٤٠٦ هـ) قد ألّف كتاباً باسم خصائص الأئمة وذكر في المقدمة - كما فعل النجاشي - إنّ الباعث على تأليفه هو «تعيير البعض علينا بعدم وجود تأليف لنا في هذا الموضوع...»[١١٥].

ومن الممكن ارجاع هذا الاعتقاد الخاطئ الى عوامل ثلاثة هي:

(١١٣) رجال النجاشي، أحمد بن علي النجاشي: ص٣ ط قم.

(١١٤) احتمل آية الله السيّد محمّد علي الأبطحي في شرحه لرجال النجاشي الموسوم (تهذيب المقال) إنّ الشريف المذكور إما أن يكون السيّد المرتضى أو السيّد محمّد بن الحسن المعروف بالأطروش... تهذيب المقال: ١٥٦/١ الطبعة الثانية.

(١١٥) الذريعة: ج٧ ص١٦٤.

١ ـ تأخر عصر التدوين الفقهي والكلامي الإمامي بالقياس الى المدرسة السنّية. وذلك كنتيجة طبيعية لاعتقاد الإمامية باستمرار عصر النص بعد وفاة النبي(صلى الله عليه وآله) الى زمن الغيبة الكبرى.

٢ ـ سيادة أجواء التقية والتكتم التي عاشها الأئمة وأتباعهم.

٣ ـ عدم وجود جذور تأريخية لعنوان الإمامية تمتد الى ماقبل الغيبة الصغرى في منتصف القرن الثالث الهجري.

وتبقى الحقيقة شيء معاكس لذلك الاعتقاد تماماً، كما أشارت الى ذلك الأرقام السابقة، خاصة رقم الـ (٦٦٠٠) كتاب التي ألفها أصحاب الأئمة من أحاديثهم(عليهم السلام). ويضاف إليه ان دور الإمامية في التراث والعلوم الإسلامية كان دائماً إما تأسيسي أو أساسي، ولأجل ذلك وضع الحجة المحقق السيّد حسن الصدر كتابه «تأسيس الشيعة لفنون الإسلام» الذي أثبت فيه أن الشيعة كانوا دائماً المؤسسين للعلوم التي عرفت في العصور الإسلامية الأولى، كالنحو والصرف والعروض والشعر، والسير والتاريخ، والرجال، والفِرق والأديان، والكلام، والأخلاق، والفقه واصول الفقه...الخ[١١٦].

وهذا ما حفّز الشيخ عبدالله النعمة الى القول بأن «الشيعة في أكثر عصورهم كانوا يملكون ناصية العلم والفكر والفلسفة بشكل مثير»[١١٧] ثم تساءل قائلاً: «أليس مما يلفت النظر ان نجد الأسماء الضخمة اللامعة في الأدب من الشيعة؟ من أمثال الكميت والفرزدق والسيّد الحميري وكُثير ودعبل... أليس مما يلفت النظر ان عمالقة الفكر والفلسفة والعلم من الشيعة، من أمثال الحسن بن موسى النوبختي، والشريف ابن الأعلم البغدادي، وجابر ابن حيان وهشام بن الحكم... أليست هذه الظاهرة المثيرة تبعث على دراستهم وبحث جوانبهم؟ كما تبعث على البحث عن عوامل هذه الظاهرة...

والمظنون ان العقيدة الشيعية هي من اعمق العوامل التي ترتكز عليها هذه الظاهرة كما أنها من أبعدها أثراً في التوجيه وفي تكوين الروح الفلسفي في نفوس أتباعها، فالفكرة الشيعية قائمة في أكثر جوانبها على التأمل والمنطق، المبنية على تفهم الواقع الإنساني وعلى فهم الروح العامة في الشعوب، ولاسيما في موضوع

(١١٦) يُراجع في هذا المجال أيضاً كتاب بحوث في الملل والنحل للشيخ جعفر السبحاني: ج٦ من ص٥٢٥ الى نهاية الكتاب .

(١١٧) فلاسفة الشيعة، الشيخ عبدالله النعمة: ص١٠ ـ ١٢.

الإمامة والعصمة والجبر والاختيار وسوى ذلك»[١١٨]. ثم يضيف قائلاً: «ومن هنا كانت نظريات الشيعة وخاصة السياسية أبعد أثراً في التأريخ، وأكثر تغلغلاً في الجماهير، واثبت جذوراً في النفس الإنسانية. ومن هنا أيضاً وجدنا الروح الفلسفي يتجلى في مراحل تاريخ الشيعة بصورة واضحة. وقد كان لتوجيه الأئمة من اهل البيت(عليهم السلام)الأثر الكبير في ذلك، وخاصة اقوال الإمام علي(عليه السلام)في نهج البلاغة، واقوال الأئمة من بعده كالإمام الباقر والصادق والرضا(عليه السلام)المتناولة لما وراء الطبيعة، وكثيراً من المواضيع الطبيعية والاجتماعية والأخلاقية»[١١٩].

والحقيقة إن نشأة الفكر الإمامي وتطوره ومايحظى به من امتيازات في النوع والكم تشكل موضوعاً حريّاً بالدراسة. وعندما يتقرر البحث في عوامل تطور هذا الفكر وامتيازه على المدارس الإسلامية الأخرى لابد من الاشارة الى ان نظرية الإمامة التي يرتكز عليها المذهب الامامي الاثنا عشري تمثل الأساس لهذا التطور والامتياز. وذلك لأن موضوعها وهو الخلافة والقيادة كان الأساس البعيد أو القريب لكل ماحصل في تاريخ الإسلام والمسلمين من اختلافات وفرق ومذاهب. وقد عالجت مدرسة الخلفاء هذا الموضوع من خلال نظرية الشورى والبيعة فيما عالجه المذهب الإمامي من خلال نظرية الإمامة المعصومة الاثني عشرية. والنظرة الأوّلية لكلتا النظريتين تكفي لبيان مدى سطحية النظرية الأولى وعمق الثانية. وهذا هو الامتياز الفكري الأوّل للمذهب الإمامي. والامتياز الثاني يتمثل بالعامل السياسي الذي اعطى السلطة والحكم للنظرية الأولى وحارب النظرية الثانية فكانت الأولى تقمع الثانية بقوة السلاح والسلطان، ولا ترى من حاجة الى السلاح الفكري في المواجهة سوى الإتهام بالكفر والزندقة، فيما كانت النظرية الثانية المعزولة عن السلاح تعتبر الفكر سلاحها الوحيد في المواجهة. والامتياز الثالث يتمثل في الفروع الفقهية والكلامية الكثيرة المترتبة على نظرية الإمامة والتي كانت تتطلب المزيد من المناقشة والنقض والابرام. والامتياز الرابع يتمثل في الوسطية المتجلية في هذا المذهب من خلال بعض الأبعاد الفكرية كنظرية الأمر بين الأمرين في مسألة الجبر والتفويض، ذلك ان الذي يمسك العصى من الوسط يحتاج الى عناية ودقة أكثر من ذلك الذي يمسكها من أحد طرفيها، وبالتالي فإن القول بأمثال نظرية الأمر بين الأمرين يكشف عن عمق

(١١٨) المصدر السابق.

(١١٩) فلاسفة الشيعة، الشيخ عبدالله النعمة: ص١٠ - ١٢.

علمي أكثر، ويؤدي الى تراث فكري أكبر. وممّا لاشك فيه ان أصحاب الرأي ورجال الفكر يميلون دائماً الى المذهب الذي يمجّد العلم والفكر أكثر من غيره، ويمثل الإصلاح والخير للأمّة، ويتنفرون من المذهب الذي يبرر للسلطان أفعاله ويساعده في القمع والتنكيل. والمدرسة الإمامية هي المثال البارز للمذهب الأوّل لأنها قائمة على أساس إعطاء الإمامة لأفضل أهل زمانه في العلم والعمل. ومدرسة الخلفاء تساوق المذهب الثاني لأن فيها الكثير من التبرير للسلطان والإعانة له في الظلم. ومن الطبيعي ان ينفر رجال الفكر وأصحاب الرأي من هذه المدرسة وينضوون تحت لواء المدرسة الإمامية.

محنة التراث الإمامي في عصر التعصّب

يحضى التراث بأهمية خاصة في حياة الأمم والشعوب لأنه القوّة المعبّرة عن روح الأمّة ومدى حيويتها وقدرتها على التقدم والنهوض. والموضحة لخصوصيات الأمّة وأبعاد شخصيتها، والمجسّدة لهويتها بين الأمم الأخرى.

والى جانب ذلك يلعب التراث أدواراً حاسمة في حياة الأمم، فهو الدرع الذي يحمي أصالة الأمة عندما تتعرض للتحديات، والمنبع الذي يمدّها بالصمود والمبادرة الفعّالة عندما تقف في ساحة من ساحات المواجهة مع الأعداء، والأساس المتين للنهوض الحضاري الذي يصبح حقيقة واقعة كلما صادف تراثاً أصيلاً ويتحول الى أوهام وخيالات عندما يراد تأسيسه في ضوء تراث مصطنع لايمثل هوية الأمة الحقيقية.

أن التراث يجسّد الذات بكامل أبعادها عندما تقف في موازاة الآخر. فالأمّة ذات التراث هي الأمة التي تدرك ذاتها وتنطلق من ثقة كافية بالنفس في ساحة الحياة، والأمّة التي ليس لها تراث لاتجد ذاتاً حتى تدركها أو تثق بها، وبالتالي لاتكون لها انطلاقة في ساحة الحياة. ومن هنا ظهر مايمكننا أن نطلق عليه اسم «مباريات التراث بين الأمم» حيث أخذت كلّ أمة تدّعي العبقرية والإبداع والعظمة في تراثها وتسلب هذه الصفات عن تراث الأمم الأخرى.

وفي ضوء العلاقة بين التراث والأمة يمكننا تقسيم الأمّم الى ثلاثة أقسام:

١ ـ أمّة بلا تراث.

٢ ـ أمّة ذات تراث أرضي.

٣ ـ أمّة ذات تراث سماوي.

وقد يتعسر علينا العثور على نموذج لأمة بدون تراث، فالأمم لاتتكوّن بين عشية وضحاها، وإنّما في بحر قرون عديدة تكون - عادة - كافية لظهور تراث ما، والمقصود بالأمّة التي لاتراث لها هي الأمّة التي تلغي تراثها استخفافاً به وتعتمد في انطلاقتها على أساس تراث أمّة أخرى فتكون أمّة بلا جذور ولا تراث ولا أصالة.

والأمة من القسم الثاني هي الأمة بالمفهوم القومي الذي يمجّد التراث ويعتز به كوسيلة لإثبات حيوية ونبوغ قومية ما.

والأمة من القسم الثالث هي الأمة بالمفهوم الاسلامي الذي يمجّد التراث ويعتز به لا بوصفه وسيلة لإثبات حيوية ونبوغ الأمة فحسب، وإنّما يقدم التراث كوثيقة تدلل على عظمة الرسالة الإسلامية ومصداقيتها أيضاً. وكجذور للحضارة الإسلامية ذات قابلية على استئناف التأثير والظهور في دورة حضارية جديدة، وهذا يعني ان الأمة الإسلامية هي الأرقى في مجال العلاقة مع التراث، وامتيازها الأساسي يتمثل في البعد الرسالي الذي يجعل التراث منبعاً لحضارة متواصلة تجمع الماضي والحاضر والمستقبل في اطار واحد، فيما تقوم الأمة القومية بتجميد التراث في نطاق الماضي كما لو كان جزءاً من محتويات المتحف الوطني لبلد من البلدان، ولذا نجد الأمة الإسلامية شديدة الحساسية تجاه تراثها وكثيرة الاعتزاز به بحيث لاتشعر بوجودها إلاّ عندما تستحضر التراث الإسلامي وقيمه وأبعاده. وقد تجلى ذلك في قضية تدوين السنة الشريفة بعد وفاة الرسول(صلى الله عليه وآله) التي تحولت الى معركة بين اتجاهين اتجاه يرى ضرورة تدوين السنة النبوية وحمايتها من الاندراس، وآخر تحفظ في ذلك، واعتبره اتجاها مؤدياً الى اختلاط الحديث النبوي بآيات الكتاب. وكان الاتجاه الأوّل هو الاتجاه الشيعي والثاني هو الاتجاه الرسمي الذي تواصل حتى أيّام عمر بن عبد العزيز في نهايات القرن الهجري الأوّل، حيث بدأت حركة تدوين الحديث النبوي على الصعيد الرسمي.

وتجلى ذلك أيضاً في ظاهرة الفهرسة المبكرة التي برزت في الحضارة الإسلامية منذ القرن الهجري الثاني حينما بدأ المعنيون بالكتاب وقضايا الفكر في المجتمع الإسلامي آنذاك بتدوين فهارس للكتب الموجودة من حولهم ضمن سياقات كانت من شأنها حفظ التراث الإسلامي من الضياع الى حدّ ما في ذلك الزمن الذي كانت فيه النزاعات السياسية والمذهبية عاملاً أساسياً في تضييع التراث، حيث كانت

تُحرق مكتبات عامرة، وتتعرض المئات والآلاف من الكتب الى التلف والاندثار. فكانت السياسة تشكل ظاهرة سلبية تلتهم التراث وتعاكس نزوع الأمة الشديد لحمايته.

من ذلك ماحدث للشيخ الجليل محمّد بن أبي عمير المتوفى سنة (٢١٧هـ) الذي حبسه هارون الرشيد أربع سنوات فقامت أُخته بدفن كتبه حتى تلفت فحدّث من حفظه ومما كان سلف له في أيدي الناس، وتُعد كتبه التي صنفها فقط (٩٤) كتاباً[١٢٠].

وفي عام (٤٦١ هـ) وما بعده قام عبيد المغاربة واماؤهم بإحراق مكتبة الفاطميين بالقاهرة، واتخذوا من جلودها نعالاً لهم، ويذكر المقريزي ان الكتب التي لم تحرق سفت عليها الرياح التراب فصار تلالاً باقية الى اليوم في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب[١٢١]. وبعد سقوط الدولة الفاطمية في أواسط القرن السادس استطاع المتعصبون ان يقنعوا صلاح الدين الأيوبي بإحراق المكتبة باعتبارها تراثاً شيعياً فأمر صلاح الدين وزيره القاضي الفاضل بأن يختار منها مايراه متمشياً مع عقائد أهل السنة وان يحرق الباقي فاختار القاضي الفاضل (١٠٠٠٠٠) كتاب أوقفها على مدرسته الفاضلية بالقاهرة وبقيت بها الى ان بددتها يد الزمن[١٢٢].

وحينما احتلّ الصليبيون طرابلس سنة (٥٠٢ هـ) قاموا بإحراق مكتبة بني عمار الشهيرة التي يقال انها كانت تضم ثلاثة ملايين مجلد، وبنو عمّار أُسرة شيعية حكمت طرابلس (٤٠) سنة من أواسط القرن الخامس الى مطلع القرن السادس الهجري.

وما حصل لمكتبة الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي في بغداد من الحرق والاتلاف أشهر من ان يذكر، وما قام به هولاكو من اتلاف الكتب في نهر دجلة حتى اصطبغ ماؤه بها لايحتاج الى استشهاد وتفصيل. وفي معجم الأدباء: ان السلطان محمود بن سبكتكين لما ورد الري اطلع على كتب الصاحب بن عباد وفهارسها التي بلغت عشرة مجلدات فقيل له: ان هذه كتب الروافض وأهل البدع فاستخرج منها كلّ ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه[١٢٣].

وعندما احترقت خزانة الشهيد الثاني كانت تحتوي على ألف مجلد.

(١٢٠) رجال النجاشي، أحمد بن علي النجاشي: ص ٣٢٧، طبعة قم.

(١٢١) المواعظ والاعتبار، أحمد بن علي المقريزي: ج١ ص٤٠٩.

(١٢٢) دراسات في الكتب والمكتبات : عبدالستار الحلوجي: ص ٢٥.

(١٢٣) معجم الأدباء، ياقوت الحموي: ج٦ ص٢٥٩.

والظاهرة التي تلفت انظار الباحثين في التراث الإسلامي هي ضخامة هذا التراث بنحو لايقاس به تراث آخر. فقد ذكر ان خزانة كتب المرتضى كانت تضم ٨٠٠٠٠ مجلداً، وكتب اليافعي بلغت ١٤٠٠٠٠ مجلد، وان كتب الصاحب ابن عباد كانت تحتاج الى ٧٠٠ بعير لحملها، وان الحسين بن جبير حينما ألّف نخب المناقب كان عنده الف كتاب. ونقل صاحب المناقب عن أبي المعالي الجويني أنّه يتعجّب ويقول: شاهدت مجلداً ببغداد في يد صحاف فيه روايات غدير خم مكتوباً عليه: المجلدة الثامنة والعشرون من طرق قوله: من كنت مولاه فعلي مولاه، ويتلوه في المجلدة التاسعة والعشرين، وحكي عن القطب الراوندي انه قال: سمعت بالحجاز بعض العلماء يقول رأيت بمصر مجموعاً من كلام علي(عليه السلام)فى نيف وعشرين مجلداً[١٢٤]. وإذا أحصينا مانقله محمّد بن إسحاق النديم في الفهرست عن لسان جابر بن حيان بماله من الكتب المؤلفة في الطب والفلسفة والحيل والصنعة صار المجموع ٣٩٠٠ كتاب ورسالة[١٢٥]. وذكر النديم أيضاً ان خزانة الواقدي بلغت ٦٠٠ قمطير كلّ منها حمل رجلين[١٢٦]. وفي قرطبة أنشأ المستنصر الذي ولي الحكم من سنة (٣٥٠ الى سنة ٣٦٦ هـ) مكتبة جمع فيها مالم يجمعه أحد من الملوك قبله، وروى ابن خلدون انه كان لها (٤٤) فهرساً في كلّ منها عشرون ورقة ليس فيها إلاّ ذكر اسماء الدواوين[١٢٧]. وفي سنة (٣٧٨ هـ) أنشأ العزيز الفاطمي في القاهرة مكتبة ضخمة وصفت بأنها من عجائب الدنيا، وقيل انها بلغت المليونين، اما دار العلم التي أسسها بنو عمار في طرابلس فقد قدرت كتبها بثلاثة ملايين مجلد[١٢٨].

وممّا يذكر في هذا المجال أيضاً ان المؤرخ اللبناني فيليب دي طرازي استطاع ان يجمع ما تناثر وتبعثر في الوف المصادر من أخبار ومرويات عن خزائن الكتب العربية وأثمر جهده سِفراً في ثلاثة مجلدات نشر في لبنان سنة (١٩٤٨م) بعنوان خزائن الكتب العربية في الخافقين[١٢٩].

(١٢٤) كشف الأستار، أحمد الصفائي: ص ٥.

(١٢٥) الفهرست، محمّد بن إسحاق النديم: ص٤٢٢ - ٤٢٣ المقدمة ط طهران.

(١٢٦) المصدر السابق: ص ١١١.

(١٢٧) العِبر تاريخ ابن خلدون،، عبدالرحمن بن خلدون: ج٤ ص١٤٦.

(١٢٨) دراسات في الكتب والمكتبات، عبدالستار الحلوجي: ص٢٢.

(١٢٩) تراثنا بين ماض وحاضر، عائشة عبدالرحمن، بنت الشاطئ: ص١٩.

وإذا شئنا المقارنة بين حجم التراث الإسلامي وغيره فيكفينا ماقاله آرثر بوب من ان خزانة الصاحب بن عباد التي اشتملت على (٢٠٦) آلاف مجلد تعادل وحدها ماكان موجوداً في مكتبات أوربا مجتمعة(١٣٠).

ويستخلص من مجموع هذه الأرقام ان التراث الإسلامي تراث غني جداً بنحو يعبر عن قوة الإنطلاقة العقلية التي أحدثها الإسلام في المجتمع آنذاك. وأن الشيعة تمتّعوا بحصّة أساسية وبارزة فيه رغم ماعانوه من القمع والاضطهاد ورغم الإتلاف والحرق الذي تعرضت له خزائن ومكتبات الشيعة من قبل الحاكمين. مما يدل على اتساع الحصة الشيعية من التراث الإسلامي بنحو جعل الشيعة سباقين في حركة الفهرسة حرصاً منهم على حفظ تراثهم من الضياع.

إن تراثاً كهذا حريّ بالاهتمام والعناية وجدير ببذل الجهود من أجل حفظه وحمايته من التلف واستخدام كافة الوسائل التقنية الحديثة في هذا المجال وتسخير علميّ للفهرسة الحديثة والمكتبات اللذين بلغا شأواً بعيداً في التطور والتقدم من أجل هذا الهدف الكبير والعمل على حفظ المخطوطات مهما أمكن ومن ثمّ تحقيقها وتنقيحها بالشكل اللائق وتقديمها الى الأجيال.

(١٣٠) دراسات في الكتب والمكتبات، عبدالستار الحلوجي: ص٢٠.

أهمية الفهرسة ودور الإمامية فيها

الفهرسة اصطلاحاً

عرّف الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة (١٧٥ هـ) الفهرس بأنه «الكتاب الذي تجمع فيه الكتب»[١٣١]. ونصّ ابن منظور المتوفى سنة (٧١١ هـ) في لسان العرب على هذا التعريف دون زيادة أو نقيصة، ونقل عن الأزهري أنه ليس عربياً محضاً وإنما معرّباً[١٣٢]، وفي القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروآبادي المتوفّى سنة (٨١٧ هـ)[١٣٣]. وأقرب الموارد للشرتوني: «فهرس كتابه، فهرسة عمل له فهرساً، الفهرس كزبرج الكتاب الذي تجمع فيه أسماء الكتب، ودفتر في أول الكتاب و آخره يتضمن ذكر ما فيه من الأبواب والفصول ومواضعها ليسهل الوقوف على المطلوب منها وهو المتعارف الآن معرّب فهرست، ج فهارس»[١٣٤].

هكذا ورد التعريف بالفهرس في كتب اللغة. ويلاحظ ان الشرتوني وهو من اللغويين المحدثين قد توسّع في بيانه، والظاهر انّ هذا التوسع ناشئ من النظر الى الاستعمال والاصطلاح الأكثر شيوعاً وانتشاراً واستخداماً في عالم التصنيف، حيث تسمى القائمة المدرجة في أوّل الكتاب أو آخره والمشتملة على اسماء الفصول والأبواب والبحوث الداخلية بالفهرس بنحو أوجب انصراف هذه اللفظة في الأذهان الى هذا المعنى قبل أي معنى آخر ولذا قال: «وهو المتعارف الآن».

والحقيقة ان الفهرس في الاصطلاح أوسع من ذلك بكثير. وما أشارت إليه المصادر اللغوية المذكورة هو المصداق البارز والشائع. وهناك معان أُخرى كثيرة لم تذكر، فهناك فهرس لأسماء القبائل والأيّام كالذي أشار إليه النديم في فهرسته عند

(١٣١) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي: ص٦٤١، بترتيب محمّد حسن بكائي، اصدار مؤسسة النشر الإسلامي قم.
(١٣٢) لسان العرب، محمّد بن مكرّم ابن منظور: ج١٠ ص٣٤٢.
(١٣٣) القاموس المحيط، محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: ج٢ ص٣٤٧ ط بيروت.
(١٣٤) أقرب الموارد، سعيد الشرتوني: ج٢ ص٩٤٨ .

كلامه عن كتاب القبائل الكبير الذي جمعه محمّد بن حبيب بن أمية بن عمر للفخ بن خاقان المتوفّى سنة (٢٤٧ هـ) حيث ذكر انّه رأى الكتاب وفيه فهرست لما يحتوي عليه من القبائل والأيام بخط السندي بن علي الورّاق نحو (١٥) ورقة[١٣٥]. وهناك فهرس للأعلام والمصنفات مثل «فهرست اسماء علماء الشيعة ومصنفيهم» للشيخ منتخب الدين الرازي من أعلام القرن السادس الهجري. حيث يُفهم من عنوانه أن الفهرست يرتبط باسماء العلماء كارتباطه بأسماء الكتب. وهناك من اعتبر أن الفهرس في الاصطلاح : «الكتاب الذي يجمع فيه الشيخ شيوخه وأسانيده، وما يتعلق بذلك»[١٣٦]، وهناك فهرست لأسماء الأماكن والبلدان والجبال والأنهر كالذي صنفه السيد محمّد بن السيد علي رئيس المكتبة الخديوية بمصر المتوفى سنة (١٣٤٦ هـ) ونقل عن محمّدبن أحمد الخوارزمي المتوفى سنة (٣٨٧ هـ) انّه عرّف الفهرس في مفاتيح العلوم بأنه «كتاب ودفاتر تذكر فيه الأعمال ويكون في الديوان وقد يكتب فيه أسماء الأشياء»[١٣٧]. وأخيراً اعتبرت المعاجم ـ وهي الكتب التي تجمع الألفاظ أو الأسماء وتشرحها في ترتيب معين ـ نوعاً من الفهرسة، فعدّ الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع كتاب العين ممن ساهم في ارساء أُصول علم الفهرسة[١٣٨] . بل عدّت المسانيد وهي الكتب المصنفة على ترتيب اسماء الصحابة وجمعت فيها أحاديث كل صحابي تحت اسمه نوعاً من الفهرسة المتقدمة[١٣٩] .

ومن الفهارس الشائعة الآن تلك التي تصدت لتنظيم وترتيب ألفاظ كتاب معين كالقرآن الكريم أو نهج البلاغة أو مصادر الحديث النبوي بطريقة هجائية. كالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، والمعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة. والمعجم المفهرس للكتب الأربعة. ويستخلص من هذا العرض ان الفهرسة «هي عملية تنظيم وترتيب الأسماء أو المطالب الخاصة في قوائم معينة وضمن ترتيب ما سواء كانت تلك الأسماء اسماء كتب أو اشخاص أو بلدان أو قبائل. وسواء كانت تلك المطالب قرآنية أم حديثية أم أي شيء آخر. وسواء كان الترتيب موضوعياً أم هجائياً أم زمنياً ام شيئاً آخر».

(١٣٥) فهرست النديم، محمّد بن النديم: ص١٢٠ ط طهران.

(١٣٦) فهرست الفهارس والاثبات، عبدالحي الكناني: ج١ ص٦٩ نقلاً عن أبي عبدالله الرهوني في طالعة أوضح المسالك.

(١٣٧) المصدر السابق: ص٧٠.

(١٣٨) علم فهرسة الحديث، يوسف عبدالرحمن المرعشلي: ص٢١.

(١٣٩) فهرست الفهارس والاثبات: ص ٢٢ .

فتكون الفهرسة مفهوماً عاماً ينطبق على مصاديق متعددة. ولذا يحتاج عند الاستعمال الى ما يقيّده فيقال فهرس الرجال، فهرس الكتب، فهرس الكتاب، فهرس الأحاديث... الخ.

ويبقى المصداق البارز هو ذلك الذي ظهر قبل غيره. وعنى به المختصون أكثر من غيره، وأشار إليه أقدم مصدر لغوي عربي هو كتاب العين للخليل الفراهيدي. وهو الخاص بالكتب والمكتبات الذي اصطلح عليه الغربيون اسم «علم البيبلوغرافيا ـ bibliography» والذي اطلق في البدء على فن نسخ الكتب ثم تحول مدلوله في النصف الثاني من القرن الثامن عشر من كتابة الكتب الى الكتابة عن الكتب. وتُقسم البيبلوغرافيا الى نسقية وهي التي تُحصي الانتاج الفكري في موضوع ما، والتحليلية التي تهتم بالوصف المادي للكتاب من حيث ورقه وطباعته ونوع حروفه وعدد ملازمه وغير ذلك(١٤٠).

وهذا هو النوع الذي سنتحدث عن أهميته وأنواعه.

أهمية الفهرسة وأنواع الفهارس

تعتبر الفهرسة قليلة الأهمية بالنسبة الى القارئ العادي، لكنها على درجة كبيرة جداً من الأهمية بالنسبة للباحثين والمحقّقين والمؤلفين وذوي الاختصاصات العلمية وأمناء المكتبات. ويمكننا ادراج الأغراض التي تؤديها الفهرسة بالنقاط التالية:

١ ـ حفظ التراث من الضياع والفقدان. فإذا كانت أعيان الكتب في معرض التلف والإندثار لسبب أو لآخر فإن بإمكان الفهارس ان تحتفظ باسماء الكتب وأوصافها، وهذه درجة من الحفظ لا تنكر أهميتها بالنسبة للباحثين.

٢ ـ تبيين المستوى ـ من حيث النوع والحجم ـ الفكري لفئة أو مجتمع معين، فإن الفهارس تقدم خطوطاً بيانية عن تقدم الفكر أو تقهقره في شريحة اجتماعية ما أو بلد ما أو زمن ما، في هذا المجال أو ذاك من مجالات الفكر والأدب. بما يهيئ الأرضية لدراسة عوامل التقدم وأسباب التقهقر.

(١٤٠) مدخل لدراسة المراجع، عبدالستار الحلوجي: ص ٨٥ ولمزيد من التوضيح يراجع المورد: ج٢ ص٦٣. والموسوعة العربية الميسرة: ج١ ص٤٥٦ ط دار الجيل.

٣ ـ تقديم خدمات معلوماتية للباحثين عن المصادر التي يحتاجون إليها في انجاز بحوثهم ومؤلفاتهم. وهذه النقطة أصبحت ضرورة ماسّة نظراً للكم الهائل وغير القابل للحصر من المؤلفات .

٤ ـ المساعدة على بيان جهات النقص والكمال في الموضوعات التي يهتم الباحثون بدراستها بنحو يؤدي الى التكامل في الأعمال الفكرية واملاء الفراغات في حركة الفكر وتلافي التكرار والحركة الموضعية فيه.

أما أنواع الفهارس فيمكننا بيانها بما يلي:

١ ـ فهارس المكتبات: فلكل مكتبة فهرساً يوضح ما تشتمل عليه من الكتب. وأوصاف هذه الكتب. سواء كانت المكتبة شخصية أم عامة، وسواء كانت محتوياتها كتباً مطبوعة أو مخطوطة، وهذا النوع من الفهارس قديم جداً. ويحكى أن مكتبة الصاحب بن عباد المتوفى سنة (٣٨٥ هـ) بلغت فهارسها عشرة مجلدات كاملة[١٤١].

٢ ـ الفهارس الوطنية: التي تصدرها المؤسسات المعنية بالنشر والتأليف في بلد معين كتوثيق لحركة النشر والتأليف والفكر في هذا البلد. مثل النشرة المصرية للمطبوعات ودليل الكتاب المصري. ومن هذه الفهارس ما هو خاص بمدينة معينة مثل معجم المطبوعات النجفية للشيخ محمّد هادي الأميني.

٣ ـ الفهارس الموضوعية التي تعني بفهرسة المصنفات الخاصة بموضوع معين وهو نوع قديم. وقد نصّ النديم في فهرسته على ان جابر بن حيان وضع فهرساً صغير يحتوي على ما ألف في الصنعة فقط أي في الكيمياء[١٤٢] ويحضى هذا النوع بأهمية خاصة لدى الباحثين والمؤلفين ومن أمثلته الحديثة فهارس الشيخ عبدالجبار الرفاعي وأبرزها معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت، ومعجم الدراسات القرآنية، والاختراق الثقافي. ومن هذا النوع ما يسمى بفهارس الفهارس مثل كتاب (راهنمايى پژوهش) للشيخ جواد محدثي .

٤ ـ الفهارس الخاصة بمؤلفات مؤلف معين. كفهرس كتب جالينوس الذي ذكر النديم ان حنيناً عمله الى علي بن يحيى[١٤٣].

(١٤١) معجم الأدباء، ياقوت الحموي: ج٦ ص٢٥٩ .

(١٤٢) الفهرست، محمد بن إسحق النديم: ص٤٢١ .

(١٤٣) الفهرست، محمّد بن إسحاق النديم: ص ٣٤٨ .

٥ ـ الفهارس الخاصة بمصنفات طائفة أو مذهب معين. كفهرست النجاشي المسمى بالرجال وفهرست الشيخ الطوسي والذريعة للشيخ الطهراني.

٦ ـ فهارس الروايات والصحف: التي تفهرس ما ينشر في المجلات والصحف من الدراسات والمقالات مثل: «فهرست مقالات فرهنكي در مطبوعات جمهوري إسلامي إيران».

دور الإمامية في نشأة وتطور الفهرسة الإسلامية

ورد في بعض المصادر ان الحضارات القديمة عرفت نوعاً من البيبلوغرافيا. وان مكتبتي نينوى والاسكندرية وجدت فيها أمثلة من الفهارس(١٤٤). وقد نصت المصادر اللغوية ـ كما رأينا ـ على ان لفظة «الفهرست» فارسية وأنّها عرّبت بـ «الفهرس»، وهذا يدل بشكل أوّلي على وجود الفهرسة قبل الإسلام خارج الجزيرة العربيةوان الفرس كانوا على اطلاع بذلك.

أما في العصر الإسلامي فمن المؤكد ان القرن الهجري الأوّل قد انقضى دون ان يترك مؤشراً على وجود اسم الفهرسة أو مضمونها. والسبب في ذلك يعود الى عدم وفرة التآليف. بينما انطوى القرن الثاني على مؤشرات كافية في هذا المجال، منها ايراد الخليل بن احمد الفراهيدي كلمة الفهرس في كتابه العين وبيان معناها بنحو يدل على دخول هذا المعنى في الحضارة الإسلامية في تاريخ سابق على وفاة الفراهيدي التي كانت في عام (١٧٥ هـ) وينصّ ابن النديم في فهرسته على أن جابر بن حيان الكوفي المتوفّى سنة (٢٠٠ هـ) ترك فهرستاً كبيراً يحتوي على جميع ما ألّف في الصنعة وغيرها، وفهرستاً صغيراً يحتوي على ما ألف في الصنعة فقط(١٤٥). وإضافة الى ذلك اشار النديم الى وجود خمسة فهارس اخرى ظهرت في أزمان مختلفه قبله(١٤٦).

(١٤٤) الموسوعة العربية الميسّرة : ج١ ص٤٥٦ ط دار الجيل.

(١٤٥) الفهرست، محمّد بن إسحاق النديم: ص٤٢١ .

(١٤٦) هي المذكورة في الصفحات التالية من فهرسته ص ١٢٠، ص ٢٤٠، ص ٣١٢، ص ٣٤٨، ص ٣٥٧. فيكون مجموع الفهارس المذكورة في فهرست النديم سبعة فهارس ظهرت قبله بأزمان مختلفة.

وممن سبق النديم في عمله احمد بن طيفور البغدادي المتوفى سنة (٢٨٠ هـ) صاحب كتاب بلاغات النساء، واخبار المؤلفين والمؤلفات. وقد ذُكر أن خزانة بيت الحكمة في بغداد كان لها في زمان الخليفة العباسي المأمون المتوفى (٢١٨ هـ) فهرساً، وان المأمون سأل الحسن بن سهل يوماً عن اشرف كتب العجم فذكر له منها كتاب «جاويدان خرد» فدعا المأمون بفهرست كتبه وجعل يقلبه فلم ير لهذا الكتاب ذكراً، فقال: كيف يسقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست؟[١٤٧].

وذكر النجاشي ان لعلي بن الحسين المسعودي المتوفى (٣٤٦هـ) صاحب مروج الذهب فهرستاً.وأن في فهرست ما رواه محمّد بن جعفرالقمي المعروف بابن بطة المتوفى في أوائل القرن الرابع الهجري من الكتب غلط كثير[١٤٨]. وذُكر أن لكل من سعيد بن عبدالله الأشعري القمي المتوفى سنة (٢٩٩ أو ٣٠١ هـ) وعبدالله بن جعفر الحميري الذي كان في سنة مأتين وتسعين ونيف حيّاً فهرساً بالكتب التي روياها[١٤٩].

ويتحصّل من كل ذلك ان النديم كان مسبوقاً في فن الفهرسة بما لا يقل عن قرنين من الزمان وان فهارس كثيرة ظهرت قبله. ولئن كان فهرست النديم المصنف سنة (٣٧٧ هـ) يجسد نموذجاً بيبلوغرافيا متقدماً فذلك ما يؤكد وجود مرحلة سابقه كانت الأساس في نضجه وتقدمه، وبعده ظهرت فهارس كثيرة، منها فهرس كتب دار العلم التي أسسها سابور بن أردشير وزير بني بويه سنة (٣٨٣ هـ) في الكرخ ببغداد[١٥٠]. وفهارس مكتبة الصاحب بن عباد المتوفى سنة (٣٨٥ هـ) التي بلغت عشرة مجلدات كاملة[١٥١]. وفهارس خزانة عضد الدولة البويهي في شيراز المتوفّى سنة (٣٧٢ هـ)[١٥٢] وكتب محمّد بن محمّد البصروي تلميذ الشريف المرتضى فهرس تصانيف أستاذه الشريف سنة (٤١٧هـ) ويستفاد من فهرست الشيخ الطوسي ان لأستاذه الشيخ المفيد المتوفى (٤١٣ هـ) فهرساً بتصانيفه ويشعر القارئ لمقدمة فهرست الشيخ ان الفهارس كانت نوعاً شائعاً من التصانيف لدى الإمامية فقد كتب يقول: «.. فإني لمّا رأيت جماعة من شيوخ طائفتنا من أصحاب الحديث عملوا فهرست كتب أصحابنا

(١٤٧) رسائل البلغاء، محمّد كردعلي: ص٤٨٠ ط ٣ مصر.

(١٤٨) رجال النجاشي، أحمد بن علي النجاشي: ص٢٥٤ و ٣٧٣ .

(١٤٩) مصفى المقال، آقابزرك الطهراني: ص١٨٦، ٢٤٧.

(١٥٠) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي: ج١٤ ص٣٦٦ بيروت.

(١٥١) معجم الأدباء، ياقوت الحموي: ج٦ ص٢٥٩.

(١٥٢) أحسن التقاسيم، محمّد بن أحمد المقدسي: ص ٤٤٩.

وما صنفوه من التصانيف ورواه من الأصول ولم أجد أحداً استوفى ذلك ولا ذكر أكثره، بل كل منهم كان غرضه أن يذكر ما اختص بروايته وأحاطت به خزائنه من الكتب ولم يتعرض أحد منهم لاستيفاء جميعه إلاّ ما قصده أبو الحسن أحمد بن الحسين بن عبيد الله (رحمه الله)فانه عمل كتابين أحدهما ذكر فيه المصنفات، والآخر ذكر فيه الأصول واستوفاهما على مبلغ ما وجده وقدر عليه، غير أن هذين الكتابين لم ينسخهما أحد من أصحابنا واخترم هو(رحمه الله)وعمد بعض ورثته الى إهلاك هذين الكتابين وغيرهما من الكتب، على ما حكى بعضهم عنه...»[١٥٣] وهذا ما دفعه الى تصنيف الفهرست المعروف باسمه والذي نص فيه على انه لا يضمن استيفاء كل مصنفات الإمامية «فإن تصانيف أصحابنا وأصولهم لا تكاد تضبط لانتشار أصحابنا في البلدان وأقاصي الأرض غير ان علي الجهد في ذلك»[١٥٤].

ويعتبر فهرست النجاشي المعروف برجال النجاشي قمة الفهارس الإمامية في الدقة والضبط، ولذا عُدّ مؤلّفه وهو أحمد بن علي النجاشي المتوفى سنة (٤٥٠ هـ) إمام الرجاليّين والمفهرسين، ولولا شهرته بذلك لاحتاج الأمر الى ذكر شواهد من كتابه تدلل على مدى ضبطه ودقته في الرجال والمصنفات. وبعده ألف الشيخ محمّد بن علي بن شهرآشوب المتوفى سنة (٥٨٨ هـ) كتابه معالم العلماء كأستدراك على ما فات الشيخ الطوسي من اسماء المصنفين الإمامية ومصنفاتهم .وصنف معاصره منتجب الدين علي بن موفق الدين الذي كان في سنة (٦٠٠ هـ) حيّاً كتابه فهرس علماء الشيعة ومصنفيهم.

وظهرت في القرن السابع عدّة فهارس منهاكتاب الإبانة عما في الخزانة للسيد علي بن طاووس المتوفى سنة (٦٦٤ هـ) ذكر فيه اسماء الكتب التي كانت في خزانة كتبه. وصنف المؤرخ علي بن أنجب البغدادي المتوفى سنة (٦٧٤ هـ) كتاب أخبار المصنفين واسماء المصنفات، كما صنف السيد عبدالكريم بن طاووس الحلي المتوفى سنة (٦٩٣ هـ) كتاب الشمل المنظوم في مصنفي العلوم، وتسجل المصادر التي بأيدينا انقطاعاً في حركة الفهرسة خلال القرنين الثامن والتاسع، وفي النصف الثاني من القرن العاشر يظهر عند أهل السنّة كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة لأحمد بن مصطفى بن خليل الشهير بطاش كبرى زادة الحنفي البرساوي المتوفى سنة

(١٥٣) الفهرست، محمّد بن الحسن الطوسي: ص١ ـ ٢.

(١٥٤) الفهرست: ص٣.

(٩٦٨ هـ)، وطبع هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات بحيدرآباد الدكن بأمر السلطان آصف جاه السابع المتوفى هناك سنة (١٣٨٦ هـ). وألف ابنه الشيخ محمّد افندي طاش كبرى زادة المتوفى في القسطنطينية سنة (١٠٢٦ هـ) كتابه موضوعات العلوم المطبوع سنة (١٣١٣ هـ) بمطبعة الإقدام في اسطنبول. وفي القرن الحادي عشر وضع الشيخ مصطفى أفندي الشهير بالكاتب الجلبي المتوفى سنة (١٠٦٧ هـ) كتابه الشهير كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون الذي جمع فيه أسماء ٢٠٠٠٠ كتاب من مؤلفات علماء الإسلام وطبع بأوربا ومصر والهند وبيروت وطهران. ووضع الملا عبداللطيف بن محمّد بن مصطفى الشهير برياضي زادة الرومي الحنفي المتوفى سنة (١٠٧٨ هـ) كتابه المعروف باسماء الكتب، ذكر فيه بعض من لم يذكر في كشف الظنون. كما صنف الشيخ محمّد عزّتي أفندي المشهور بوسنه زادة الإسلامبولي المتوفى سنة (١٠٩٢ هـ) ذيلاً لكشف الظنون. كما ألف السيد حسين العباسي النبهاني الحلبي المتوفى سنة (١٠٩٦ هـ) كتاب التذكار الجامع للآثار. وفي القرن الثاني عشر صنف الشيخ محمّد أبو الفتوح الصديقي الحنفي كتاب المؤلفين والمؤلفات وفرغ سنة (١١٨٠ هـ)، وصنف الشيخ اسماعيل بن عبدالرسول الأجيني المتوفى سنة (١١٨٣ هـ) أو سنّة (١١٨٤ هـ) وهو من علماء الإسماعيلية كتابه فهرست الكتب والرسائل، كما صنّف الشيخ عبدالنبي بن عبدالرسول العثماني الحنفي الهندي كتابه معجم العلوم والحرف، إلاّ أنه لم يتم ولم يطبع، وفي نهاية القرن الثاني عشر ألف الشيخ محمّد بن علي السهروردي الكردي المتوفى سنة (١٢٠٠ هـ) كتابه تنويع العلوم. وفي القرن الثالث عشر صنف العلامة شمس الدين علي الحسيني الشيرازي المتوفى سنة (١٢٠٥ هـ) كتابه انواع العلوم. كما ألف السيد اعجاز حسين الكنتوري الهندي المتوفى سنة (١٢٨٦ هـ) كتابه كشف الحجب والأستار عن وجه الكتب والأسفار وألف السيد محمّد حسن الإصفهاني الهندي المتوفى حدود سنة (١٢٩٠ هـ) كتابه مؤلفات الشيعة في عدة مجلدات، إلاّ أنّه لم يتم ولم يطبع. وكتب الشيخ أحمد ظاهر أفندي الشهير بحنفي زادة المتوفى سنة (١٢١٧هـ) ذيلاً على كشف الظنون سماه «آثار نو». كما كتب الشيخ حكمت بگ شيخ الإسلام المتوفى سنة (١٢٧٥ هـ) ذيلاً على كشف الظنون لم يتم. وألف المصنف صديق بن حسن

القنوجي ملك بوبهال الهندية كتابه الشهير أبجد العلوم، وقد طبع هناك سنة (١٢٩٦ هـ) وكان قد فرغ منه سنة (١٢٩٠ هـ).

وفي القرن الرابع عشر اتسع نطاق الفهارس الإسلامية وتضاعفت اعدادها وأبرزها ما ظهر فيه منها، كتاب معجم المصنفين لعدد من علماءالهند، وقد طبع في بيروت سنة (١٣٤٤هـ) بأمر السلطان نظام شاه آصف جاه السابع ملك حيدر آباد الدكن المتوفى سنة (١٣٨٦ هـ)، وكتاب هدية العارفين للشيخ اسماعيل باشا البغدادي المتوفى سنة (١٣٣٩ هـ) المطبوع بإسلامبول سنة (١٣٦٤ هـ)، وكتاب معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة وقد طبع بدمشق سنة (١٣٧٨هـ) في خمسة عشر جزءاً. وكتاب الذريعة الى تصانيف الشيعة للمحقق الشيخ آغا بزرگ الطهراني في (٢٦) جزءاً. وكتاب مرآة الكتب للشيخ علي بن موسى بن محمّد شفيع بن محمّد جعفر الخراساني التبريزي المصلوب سنة (١٣٣٠ هـ) على أيدي الروس الغزاة. ومنها إيضاح المكنون وكذلك
هدية العارفين للشيخ اسماعيل باشا بن محمّد أمين ابن الأمير سليم الباباني البغدادي المتوفى سنة (١٣٣٩ هـ)، وقد طبع الكتاب بإسلامبول من سنة (١٣٦٤ هـ) الى سنة (١٣٦٦ هـ). ومنها جامع التصانيف المصرية للفاضل عبدالله الأفندي ومنها كشف الأستار عن وجه الكتب والأسفار للسيد أحمد الصفائي الخونساري المتوفى سنة (١٣٥٩ هـ) ومنها فهرست كتابهاي چابي عربي وفارسي للميرزا خانبا بالمشار الطهراني ومنها تاريخ التراث العربي .

هذه أبرز الفهارس التي ظهرت في القرن الرابع عشر، والتي اتسعت وتنوعت الى حد يصعب معه الحصر والاستقصاء، حيث أصبحت الجامعات ومراكز النشر ومؤسسات التحقيق ودور الصحافة والمكتبات إضافة الى الشخصيات المتخصصة والمعنية بالفهرسة تقوم بأنواع مختلفه من الفهرسة وتفهرس ما بحوزتها أو ما تراه ضرورياً من التراث. وإضافة الى ما قام به المسلمون من دور في هذا المجال هناك دور آخر لا ينكر قام به المستشرقون والمسيحيون الشرقيون. ويرى الباحث عبدالستار الحلوجي إنّ أوّل عمل ببلوغرافي استشراقي بشأن الإسلام هو الذي نشره «شنورر» باللاتينية في الفترة من سنة (١٧٩٦م) الى سنة (١٨٠٦م)، ثم أعاد اصداره سنة (١٨١١م) في طبعة جديدة اكمل من سباقتها، وقد أحصى في عمله هذا

كل المؤلفات العربية التي طبعت في أوربا فيما بين عامي (١٥٠٥م) و(١٨١٠م). وفي سنة (١٨٤٠م) ظهر كتاب آخر كان من تأليف «زنكر» الذي جعل له عنواناً طموحاً يتسع لكل الكتب الشرقية التي نشرت في الشرق أو الغرب منذ ظهور الطباعة وحتى سنة (١٨٤٠م)، وفي برلين أصدر لوسيان شيرمان سنة (١٨٨٨م) دورية قصد بها تسجيل كل ما نشر من كتب وبيبلوجرافيات وفهارس ودوريات في مجال الدراسات الإسلامية، وتواصلت هذه الدورية حتى عام (١٩٢٢م). ومن سنة (١٨٩٢م) الى سنة (١٩٢٢م) صدر كتاب لفيكتور شوفان وأراد به أن يكون ببلوجرافيا شاملة عن الإسلام تضم كل ما طبع في أوربا عن القانون والتاريخ الفلسفة والعلوم الإسلامية. وفي سبيل ذلك قام بفحص آلاف الفهارس في مدة عشرين سنة[١٥٥]، وألف الأستاذ اليان سركيس كتاب معجم المطبوعات العربية والمعربة وكتاب جامع التصانيف الحديثة، وصنف المستشرق فانديك ادوارد الهولندي الأصل الأمريكي النشأة المتوفى سنة (١٣١٣ هـ) كتابه «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» المطبوع بمطبعة الهلال المصرية سنة (١٣١٣ هـ)، ومن تلك الأعمال أيضاً كتاب «وصف الكتب الشرقية» للباحث الألماني اغسطس مولر، وقد طبع ببرلين سنة (١٣٣٧ هـ) في سبعة أجزاء. ويعد كتاب «تاريخ الأدب العربي» للمستشرق الألماني كارل بروكلمان المتوفى سنة (١٩٥٦م) في مقدمة ما قام به المستشرقون في هذا المجال، وقد كلفه مشروعه أكثر من خمسين سنة من البحث والتحقيق والجمع معتمداً على مانشر من فهارس في شتى أرجاء المعمورة عن المخطوطات العربية. والى جانب ذلك اهتم المستشرقون بكتاب كشف الظنون، فترجمه المستشرق الفرنسي فلوغل المتوفّى سنة (١٢٨٧ هـ)، وطبعت ترجمته سنة (١٢٩٩ هـ) وترجمه مستشرق هولندي أيضاً. وطبع سنة (١٣٠٠ هـ) في «ليبزيك» في سبعة أجزاء باهتمام من المستشرق فلوغل.

ومن خلال هذا الاستعراض السريع لنشأة الفهرسة الإسلامية وتطورهايظهر جلياً أمامنا الدور المتميز الذي قامت به الإمامية في نشأة الفهرسة والمرحلة الأولى من تاريخها. فإن الباحث يلاحظ باهتمام تكثف فهارس الإمامية في الفترة منذ نشأة الفهرسة في القرن الثاني الهجري وحتى نهاية القرن السابع الهجري، بحيث تبدو

(١٥٥) دراسات في الكتب والمكتبات، عبدالستار الحلوجي: ص١٢١ ـ ١٢٤.

فهارس غيرهم قلة ضئيلة جداً. بعد ذلك تتجمد حركة الفهرسة الإسلامية طيلة القرنين الثامن والتاسع، وبعد منتصف القرن العاشر تعود هذه الحركة الى الظهور من جديد على أيدي الأحناف الأتراك العثمانيين، فيما يتواصل غياب الفهرسة الإمامية الى نهايات القرن الثالث عشر الهجري لتستأنف نشاطها من جديد على يد السيد اعجاز حسين الكنتوري، ومنذ ذلك اليوم وحتى يومنا الحاضر والفهرسة الإسلامية نشطة بأدوار سنّية وإمامية واستشراقية مشتركة.

وتبيّن لنا من خلال العرض التاريخي لنشأة تطور الفهرسة الإسلامية ان الفهرسة ليست جزءاً من حركة الفكر في مجتمع ما فحسب، وإنّما هي المظهر الذي تنعكس من خلاله حركة الفكر وتتجلى فيه أبعادها وجوانبها المختلفة أيضاً، وهذا يعني أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الفهرسة والحركة الفكرية في المجتمع. فهي تتواصل وتتوقف تبعاً لتواصل أو توقف تلك الحركة التي تستبطن في داخلها ضرورة الفهرسة، وحيث أن حركة الفكر في المجتمع الإنساني واقع لا يمكن تصور وجود هذا المجتمع بدونه. فمن توابع هذا الواقع ان تتأصّل الفهرسة لحركة الفكر ونتاجه. وان تتجه نحو الكمال كلما استطاعت ذلك. فالمبرر لتواصل الفكر والحركة الفكرية هو بنفسه مبرر لتواصل الفهرسة واستمرارها. وهذا بحد ذاته يشكل دافعاً أوّلياً لظهور فهرس جديد يجمع شمل التراث الإمامي قديمه وجديده ويكون حلقة جديدة في حركة الفهرسة الإمامية. ويتأكد هذا الدافع عندما يكون المشروع الجديد ناظراً الى جهات النقص والكمال في المشاريع السابقة ومبنياً على أساس احراز امتيازات جديدة لم تحظ بها تلك المشاريع .

فالذريعة تمثل في زمانها أعلى مرحلة في تطور الفهرسة الإمامية، لأنها كانت اكمل وأشمل من المشاريع السابقة عليها. وقد بذل الشيخ أقا بزرگ الطهراني من أجلها الغالي والنفيس، وأوقف سني حياته في سبيلها، وتجشم عناء السفر والتجوال من بلد الى آخر ومن مكتبة الى أُخرى وعانى ما عانى من المضايقات والمصاعب على طريق انجازها بمهمة تضارع همة الشباب وجَلَدهم، وتصارع الشيخوخة وطباعها، وقد تقدم بمشروعه هذا الى طليعة العلماء الذين حفظوا المذهب الإمامي وخدموا علوم المسلمين. ومن الحق ان يكرّم بما يُكرّم به الرعيل الأوّل من الرواد

والمؤسسين. ولكن ذلك كله لا يمنعنا من التذكير بما أشار إليه الشيخ الطهراني في مقدمة الجزء الأوّل من الذريعة حيث كتب يقول:

«ان أكثر مصنفات الأصحاب الموجودة في بلادنا مما لم أحُط به خبراً، ولا حظيت برؤيته مع شدة الطلب والعناء المجهد، وطول تلك المدة، وأما الموجودة في أطراف الدنيا البعيدة عنا فحرماني عنها أولى، فما سيتلى عليك ذكره منها ليس إلاّ أقل قليل من الموجود الذي وفقني الله تعالى للوقوف عليه أو الخبرة به، يصدق عليه المثل السائر أنّها جرعة من غدير وجفنة من بيدر كبير كما أن ما ذكرته من اسماء الكتب المذكورة في تراجم مؤلفيها ليس كل ما ذكر في تراجمهم ولأجله، لأني ما ظفرت بكثير من كتب التراجم الموجودة وما مكنني الله تعالى من الحصول عليها لم انتهز فرصة تكرير النظر إليها، حيث أن لي مشاغل أُخر وعلي تكاليف ليس لي عنها مفر، وأنا كاليد الواحدة بلا معاضد ومعين، واستقصاء أسماء مصنفات الأصحاب التي لم تذهب على مترجميهم ووفقوا لذكرها في تراجمهم وان كان ممكناً إلاّ أنه لا يتأتى إلاّ بعد تشكيل لجنة علمية متناسبة الأجزاء، منظمة الأعضاء، مجتمعة الآراء، مرتبطة مع المدن، مبذولة لها المؤن لتحصيل ما يحتاج إليه من كتب هذا الفن، ومع عدم هذه الأمور فالمرجع قاعدة الميسور، الى أن يوفقني الله تعالى ويمهل في الأجل أو يوفق غيري من الأعلام المعاصرين من أهل هذا الفن، أو من يلي عصرنا ممن يبعثه الله تعالى خادماً للعلم والدين لإستدراك ما ذهب على هذا القاصر من اسماء الكتب الموجودة في خزائن الدنيا الى ما شاء الله...»[١٥٦].

وينبغي أن لا يحمل هذا الكلام على المجاملة أو التواضع، فهو عين الحقيقة التي تزيد في مكانة الشيخ الطهراني وتبين أبعاد شخصيته أكثر فأكثر. لأن المهمة التي قام بها مهمة نوعية تبقى اكبر من المجهود الشخصي لفرد واحد مهما تطاولت همته واشتدت عزيمته.

وللذريعة قصة تذكر، وهي ان جرجي زيدان الأديب المعروف المتوفى سنة (١٩١٤م) ذكر في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية: «إنّ الشيعة طائفة صغيرة لم تترك أثراً يذكر، وليس لها وجود في الوقت الحاضر»، فلما وصل الكتاب الى النجف واطلع عليه أعلامها تركت هذه الكلمة الظالمة أثراً عميقاً في نفوس الأعلام الثلاثة:

(١٥٦) الذريعة الى تصانيف الشيعة، آغا بزرگ الطهراني: ج١ ص٢١ ـ ٢٢ .

الشيخ آغابزرك الطهراني والسيد حسن الصدر والشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء، وقرروا القيام بأعمال فكرية في الرد عليه. فالتزم السيد حسن الصدر بتأليف كتاب يتكفل ببيان دور الشيعة في تأسيس العلوم الإسلامية ورفدها، فكان ذلك كتابه الشهير تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الإسلام وفنونه. وتكفل الشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء بتأليف كتاب في الرد على دعوى جرجي زيدان رداً مباشراً. فيما تعهد الشيخ محسن الطهراني بتأليف فهرست كبير يحوي آثار الشيعة ومصنفاتها منذ القرن الأوّل وحتى القرن الرابع عشر الهجري. فكان ذلك كتاب الذريعة الى تصانيف الشيعة.

وهذه القصة تذكرنا بقصة فهرست النجاشي ،حيث ذكر في مقدمته «تعيير قوم من مخالفينا أنه لا سلف لكم ولا مصنّف» فكان ذلك دافعاً لظهور فهرست النجاشي المشتهر بالرجال، ذكر هذه القصة الشيخ محمّد رضا الحكيمي في كتابه «شيخ آقا بزرگ طهراني» نقلاً عن كتاب «شيخ الباحثين» للأديب عبدالرحيم محمّد علي. والذي يطالع كتاب جرجي زيدان المذكور لا يجد فيه تلك العبارة وليس بعيداً ان تكون موجودة في طبعة معينة من طبعاته ثم حُذفت، لأن الشيخ الطهراني أشار في مقدمة الذريعة الى هذا المعنى، حيث كتب يقول:

«... ومن هنا يظهر السرّ فيما حسبه بعض المستشرقين من أن يقال في شأن كتب الإمامية، ان صحّ فقد لعبت بها أيدي سبأ، فهي أشبه شيء بالوهم والخيال، وان من يدعى له الفضيلة منهم فقد ذهب ذكره مع حديث أمس الدابر وهل هم اليوم إلا رمّة بالية لا يستفاد بهم ولا بآثارهم، فحدثتني نفسي بأنه اذا كان هذا الحسبان من بحاثة عصره وهو لا يزال يغوص في غمار الفحص والتنقيب فكيف بالرعرعة الدهماء الذين لا يعرفون الحقائق....»[١٥٧].

وأشار الى هذا المعنى أيضاً الشيخ محمّد علي الغروي فيما كتبه في مقدمة الذريعة من أن «هنالك اغرار بسطاء لا يتلقون الحقائق إلاّ ممّن لا كفاءة له، من مستشرق متطفل على علوم المسلمين، أو متحيز الى فئة تضمر عداءاً للقوم وتنظر اليهم بمؤخر عينها، يتحرون الحقيقة من هؤلاء كمن يتطلب الدرياق من فم الأفعى، فمن جرّاء ذلك طالما لاكت اشداق قوم ودارت بين لهوات آخرين، ان الشيعة ليس لها

(١٥٧) الذريعة، آقا بزرگ الطهراني: ج١ ص٣٠.

مؤلفات يستفيد بها خلفهم في شتى العلوم، ولا جرم انهم متطفلون على موائد غيرهم، متسولون من البعداء متكففون في علومهم...»[١٥٨] .

وأشار الى هذا المعنى أيضاً الأديب علي نقي المنزوي نجل الشيخ الطهراني حيث ذكر في مقدمته لنوابغ الرواة في رابعة المئات أن والده «اشترك في نوع من الحلف للدفاع عن الشيعة مع زملائه الصدر وكاشف الغطاء، ولذلك شرع في تأليف موسوعتيه الذريعة والطبقات».

هذه هي قصة الذريعة التي بدأ بها مؤلفها في سنة (١٩١٢م) وانتهى منها في سنة (١٩٣٦م) واستمر العمل بها ٢٤ سنة، واشتملت على (٥٤٠٩٣) عنوان كتاب ورسالة لما يقرب من (١٩٠٠) مؤلف. ووقعت في ٢٦ جزءاً، وقيل أنها في الأصل بلغت ٤٥ جزءاً[١٥٩]، ويؤكد ذلك ما ذكره الشيخ الطهراني في مقدمة الذريعة من انه ذكر «في نسخة الأصل من هذا الكتاب محل وجود كل كتاب وقفنا عليه، مع ذكر جملة من معرفات من وجدنا الكتاب عنده ذلك، ليسهل وصول الطالبين إليه، ولما رأينا ان جملة من تلك الكتب تداولتها الأيدي وانتقلت عن أربابها الى آخرين أو حملت الى بلدان أُخرى يعسر عرفانهما والتعرف بمن فيها أعرضنا عن ذلك».

وقد تبيّن أنها لا تمثل الطموح الذي كان يحلم الشيخ الطهراني به، والذي اعتذر عن تحقيقه بقصور اليد الواحدة عن تناول كل ما يراد منها، وعلّقه على تشكيل لجنة متخصصة ذات علاقات خارجية واسعة النطاق.

إنّ الذريعة لم تختص بالإمامية، وإنما شملت الشيعة بنحو عام، ومفهوم التشيع عند الشيخ الطهراني واسع يتقوم بالقول بالعدل والإمامة[١٦٠]. ومنشأ الاختصاص بالإمامية ليس طائفياً بل علمي، فالفهارس السنّية وأبرزها كشف الظنون لم تتعرض لذكر مصنفاتنا، وهذا ما أوجب الشبهة بكون الإمامية فئة ضئيلة لا تراث لها. وكمثال على ذلك ما نقرأه في معجم المصنفين من ان أوّل من صنف في أخبار المؤلفين أحمد بن طيفور البغدادي المتوفى سنة (٢٨٠هـ)، ثم تلاه علي بن انجب البغدادي المتوفى سنة (٦٧٤ هـ) في كتابه أخبار المصنفين[١٦١] ، مع أن القرون الأربعة المتوسطة

(١٥٨) الذريعة: ج١ ص٣٠، من مقدمة محمّد علي الغروي.

(١٥٩) معارف الرجال، محمّد حرزالدين: ج٢ ص١٨٧ في الهامش.

(١٦٠) مقدّمة نوابغ الرواة، علي نقي المنزوي: ص ٧ .

(١٦١) معجم المصنفين، عدّة من العلماء: ج١ ص٢٧.

بين التأريخين المذكورين مليئة بالفهارس، كما رأينا من قبل، والأعم الأغلب منها فهارس الإمامية فلماذا هذه القفزة من القرن الثالث الى القرن السابع؟

إن إغفال السنة لإخوانهم الشيعة ظاهرة الفتت نظر الباحثين المحايدين فذكر بعضهم انه: «قد يكون تشيع أبي الفرج محمّد بن إسحاق النديم هو السبب في تغاضي أصحاب التراجم عنه، أو اسقاط ترجمته في عصور لاحقة من النسخ المخطوطة للكتب التي ترجمت له»(١٦٢).

إضافة الى أن تأليف فهرس خاص بالامامية ومصنفاتهم من شأنه تحقيق الأغراض العلمية المتوخاة من كل فهرس والتي ذكرناها آنفاً، فإذا تم ذلك أمكننا التحدث وبلغة الأرقام عن مدى تقدم الفكر الإمامي وخصوبته وبالتالي مصداقية المذهب الإمامي، بوصف ان المذاهب والنظريات تقاس بمظاهرها الإيجابية. وتقدم الفكر مظهر ايجابي من شأنه المساعدة على بيان حقانية مذهب ما.

إنّ الذريعة مشروع طموح جداً لكنه انجاز فردي، ومن الطبيعي ان لا يكون جامعاً لكل ما يدخل في نطاقه من الآثار، خاصة وانه انجز في زمن لم تكن أكثر المكتبات مفهرسة. ورأينا أيضاً أن الشيخ الطهراني كان يعد ذريعته الخطوة الميسورة نحو الطموح الذي يحلم به. كما ان هناك آثار كثيرة ظهرت بعد الذريعة. والضرورة التي دعت الى فهرسة آثار ما قبل الذريعة تدعو بنفسها الى فهرسة آثار ما بعد الذريعة.

٣ ـ التحقيق في ما دونه صاحب الذريعة من الأسماء والعناوين. فإنّ فيها الكثير من الآثار التي لا تمتّ الى التشيع بصلة. فهناك آثار سنّية كثيرة وآثار تنتسب لمذاهب منحرفة باطلة كالقاديانية، وآثار لمؤلفين شيعة إلاّ أنّهم منسلخون عن الإسلام مرتبطون بمبادئ ملحدة كالماركسية، والآثار التي تركوها وذكرها صاحب الذريعة في ذريعته تدور حول تلك المبادئ، ككثير من الكتب الماركسية المترجمة من اللغات الروسية أو الألمانية أو غيرها الى اللغة الفارسية أو العربية. وهذا ما يدعونا الى النظر في الأسس التي اعتمد عليها الشيخ الطهراني في اثبات تشيّع المؤلفين، قال(رحمه الله) «اعتمدنا في تشيّع المؤلف على شهادة عدلين أو عدل واحد ذي خبرة بحاله وربما نستفيد من تشيّعه على بعض القرائن المذكورة في كتابه أو من امارات

(١٦٢) دراسات في الكتب والمكتبات، عبدالستار الحلوجي: ص ٩٤ .

اخر تفيدها الإطمئنان والوثوق بذلك ولم نقتصر على ذكر من عرف تشيعه عند الكل فحسب»[١٦٣].

والبيئة تعد من أبرز القرائن والإمارات التي اعتمد عليها في اكتشاف تشيّع مؤلف ما وهي مقياس جيد عموماً ولكن الالتجاء إليها لا يتم مع وجود قرائن عكسية تثير التشكيك في تشيع أبناء تلك البيئة التي قد تتمثل في قبيلة ما أو بلد ما أو قومية ما وأكثر الظن ان صاحب الذريعة اتخذ البيئة مقياساً حاسماً. فالفرس بالنسبة إليه شيعة دائماً قبل الصفويين وبعدهم. وربما دون الشيخ الطهراني بعض الآثار رغم اعتقاده بتسنن صاحبها وذلك على أساس التمييز بين الكتاب ومؤلفه. فإذا كان الكتاب يؤيد وجهة نظر شيعية فانه شيعي وان كان مؤلفه سنياً. وعلى أساس هذا الاحتمال يمكننا أن نفسر أدراج الشيخ الطهراني لآثار كثير من أعلام السنة المعروفين في ذريعته مثل ينابيع المودة للشيخ سليمان الحنفي القندوزي البلخي الذي ذكره في الجزء ٢٥ ص٢٩٠ حيث ذكر ان المؤلف لم يعلم تشيّعه لكن الكتاب يعد من كتب الشيعة. وهذه الطريقة متّبعة في الفهارس الإمامية السابقة. ففي موارد كثيرة يذكر النجاشي رجالاً ينصّ على عدم إماميتهم لكنه يدرج مؤلفاتهم لأنها تدخل في نطاق التشيع وقضاياه وكأن أساس الذريعة هو ادراج مصنفات الشيعة وان لم يكن موضوعها شيعياً ولا إسلامياً. والمصنفات الشيعية الموضوع وان كان أصحابها غير شيعة.

وقد قام العلامة السيد عبدالله شرف الدين بتحقيق واسع في الذريعة من جزئها الأوّل وحتى الجزء الأخير مبيناً الأسماء غير الشيعية التي عنونتها الذريعة على انها شيعية وذلك في الجزء الأوّل من كتابه القيّم «مع موسوعات رجال الشيعة».

وإضافة الى ذلك هناك ترددات كثيرة في الذريعة بخصوص دواوين الشعراء حيث لم يقطع بكون الشاعر المذكور صاحب ديوان أم لا. ومع انه لم يقطع بوجود الديوان إلاّ انه أورده بعنوان «ديوان فلان أو شعره». ومن الناحية العلمية يعتبر هذا التردد بحد ذاته دليلاً على عدم وجود ديوان وبالتالي عدم وجود تصنيف. وهذا يعني ان الموارد التي ذكرها تحت هذا العنوان والتي بلغت «٨٤٨» مورداً تعتبر لغواً لا طائل تحته.

(١٦٣) الذريعة : ج١ ص٢٢، ط إسماعيليان.

الفهرس

كلمة المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام) ... ٥
مفهوم التشيّع ...٩
مفهوم الإمامية ...١٢
بين المؤرّخ والمتكلّم ...١٥
رأي غريب ...١٧
الإمامية روح التشيّع ...٢٠
التأسيس النبوي للتشيّع ...٢٥
وجوب الإمامة ...٣٠
عصمة الإمام ...٣٣
الإمامة الاثني عشرية ...٣٧
المنبع النبوي لعلوم أهل البيت(عليهم السلام) ...٤٥
أوّلاً - آثار الرسول(صلى الله عليه وآله) ...٤٩
ثانياً - آثار أمير المؤمنين(عليه السلام) ...٥٠
ثالثاً - آثار السيّدة فاطمة الزهراء(عليها السلام) ...٥٧
رابعاً - آثار الإمام علي بن الحسين السجاد(عليه السلام) ...٥٨
خامساً - آثار الإمام الباقر(عليه السلام)...٥٩
سادساً - آثار الإمام الصادق(عليه السلام) ...٦٠
سابعاً - آثار الإمام الكاظم(عليه السلام) ...٦٦
ثامناً - آثار الإمام الرضا(عليه السلام) ...٦٦
تاسعاً - آثار الإمام الهادي(عليه السلام) ...٧١
عاشراً - آثار الإمام الحسن العسكري(عليه السلام)...٧٢
حادي عشر - آثار الإمام المهدي(عليه السلام) ...٧٣

تدوين التراث الإمامي ...٧٤
الفهرسة اصطلاحاً ...٩٣
أهمية الفهرسة وأنواع الفهارس ...٩٧
دور الإمامية في نشأة وتطور الفهرسة الإسلامية ...١٠١
الفهرس ... ١٢٥